سورة العنكبوت

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنيةٌ كلُّها في أحد قولَي ابن عباس وقتادة. وفي القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلَّام أنها مكيةٌ إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: نزلت بين مكة والمدينة[1]. وهي تسعٌ وستون آية[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾[3] تقدَّم القولُ في أوائل السور. وقال ابن عباس: المعنى: أنا الله أعلم. وقيل: هو اسمٌ للسورة. وقيل: اسمٌ للقرآن.

﴿أَحَسِبَ﴾ استفهامٌ أُريدَ به التقرير والتوبيخ، ومعناه الظن[4]. ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ في موضع نصب بـ«حَسِبَ» وفيه وَصِلتُها مقامُ المفعولين على قول سيبويه. و«أنَّ» الثانية من «أَن يَقُولُوا» في موضع نصبٍ على إحدى جهتين، بمعنى: لأَنْ يقولوا، أو: بأن يقولوا، أو: على أن يقولوا. والجهة الأخرى أن يكون على التكرير، والتقدير: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ أحَسِبُوا ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[5]. قال ابن عباس وغيره: يُريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريشٍ يؤذونهم

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٢٧٤.

(٢) الوسيط ٢/ ٤١٢ وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠ .

(٣) في (م) ذكرت الآية بتمامها، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٧٤ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٧ .

ويُعذِّبونهم على الإسلام، كسلمةَ بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمّار بن ياسر، وياسرٍ أبيه، وسُميةَ أمِّه، وعدةٍ من بني مخزوم وغيرِهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما استُنكِرَ أن يُمكنَ اللهُ الكفارَ من المؤمنين؛ قال مجاهدٌ وغيره: فنزلت هذه الآية مسلِّيةً ومعلِّمةً أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة. قال ابن عطية[١]: وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال، فهي باقيةٌ في أمة محمد ﷺ، موجودٌ حكمُها بقية الدهر، وذلك أنَّ الفتنةَ من الله تعالى باقيةٌ في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك. وإذا اعتُبِرَ أيضاً كلُّ موضعٍ ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن، ولكن التي تشبه نازلةَ المسلمين مع قريشٍ هي ما ذكرناه من أمر العدوِّ في كل ثغر.

قلت: ما أحسن ما قاله، ولقد صدق فيما قال ﷺ. وقال مقاتل: نزلت في مِهجَع مولى عمر بن الخطاب؛ كان أول قتيلٍ من المسلمين يوم بَدر، رماه عامر بن الحضرمي بسهمٍ فقتله، فقال النبيُّ ﷺ يومئذٍ: «سيدُ الشهداء مِهْجَع، وهو أوَّلُ من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة». فجزع عليه أبواه وامرأته، فنزلت: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾[٢]. وقال الشَّعبي: نزل مُفتتحُ هذه السورة في أُناسٍ كانوا بمكة من المسلمين، فكتب إليهم أصحاب النبيِّ ﷺ من الحديبية أنه لا يُقبَلُ منكم إقرارُ الإسلام[٣] حتى تهاجروا، فخرجوا، فأتبعهم المشركون فآذوهم، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ فكتبوا إليهم: نزلت فيكم آية كذا. فقالوا: نخرج وإن اتبعنا أحدٌ قاتلناه. فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قُتِلَ، ومنهم من نجا، فنزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾[٤].

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥ ، وما قبله منه ومن الوسيط٣/ ٤١٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠ .

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠ .

(٣) في النسخ سوى (م): إقرار ولا إسلام، والمثبت من (م) والمصادر.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٥٨-٣٥٩ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٣١) وهو تفسير البغوي ٣/ ٤٦٠ .

﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يُمتحنون، أي: أظنَّ الذين جَزِعوا من أذى المشركين أن يُقنَع منهم أن يقولوا: إنَّا مؤمنون، ولا يُمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبيّن به حقيقةُ إيمانهم[١]؟.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ابتلينا الماضين، كالخليل أُلقي في النار، وكقومٍ نُشروا بالمناشير في دين الله فلم يرجعوا عنه[٢]. وروى البخاري[٣] عن خَبَّاب من الأرت: قالوا شكَونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظِلِّ الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصِرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قبلكم يُؤخَذُ الرجلُ فيُحفَرُ له في الأرض فيُجعَلُ فيها، فيُجاء بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسه فيُجعَلُ نصفين، ويُمشَط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه، فما يصرِفُه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَّنَّ اللهُ[٤] هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حَضرَمَوت لا يخافُ إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنَّكم تستعجِلون». وخرَّج ابن ماجه[٥] عن أبي سعيد الخدري قال: دخلتُ على النبيِّ ﷺ وهو يُوعَكُ، فوضعتُ يدي عليه، فوجدْتُ حرَّه بين يديَّ فوق اللِّحاف. فقلتُ: يا رسول الله، ما أشدَّها عليك! قال: «إنَّا كذلك يُضعَّفُ لنا البلاءُ ويُضعَّفُ لنا الأجر» قلت: يا رسول الله، أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء» قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «ثم الصالحون؛ أن كان أحدُهم ليُبتلى بالفقر حتى ما يجدَ إلاَّ العباءةَ يَجوبُها[٦]، وأن كان أحدُهم لَيفرحُ بالبلاء كما يَفرحُ أحدُكم بالرَّخاء». وروى سعد بن

(١) الوجيز للواحدي على هامش مراح لبيد ٢/ ١٥٢ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤١٢-٤١٣ .

(٣) في صحيحه (٣٨٥٢)، وهو في مسند أحمد (٢١٠٥٧).

(٤) في النسخ: والله ليتمنَّ، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) في سننه (٤٠٢٤)، وهو في مسند أحمد (١١٨٩٣)، والأدب المفرد (٥١٠).

(٦) كذا في (م) وكذا ضبطها السندي في شرحه لابن ماجه ٢/ ٤٩٠ وقال: أي: يجعل لها جيباً. والذي في النسخ الخطية ومطبوع ابن ماجه «يُحوِّيها». والتَّحوية فيما ذكر ابن الأثير في النهاية (حوا): أن يُديرَ كساءً حول سنام البعير ثم يركبه. قلنا: وهذا لا يناسب المعنى، فلعله «يجوبها» كما في المسند ومطبوع الأدب المفرد، فيكون المعنى كما قال السندي في حاشيته على المسند: أي: يقطعها ليلبسها في عنقه.

أبي وقَّاصٍ قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرجلُ على حسب دينهِ، فإنْ كان في دينه صُلباً اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّةٌ ابتُليَ على حسب دينِه، فما يبرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»[١]. وروى عبد الرحمن بن زيد أنَّ عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوماً، فأخذه السَّبُعُ فأكله، فقال عيسى: يا ربِّ وزيري في دينك، وعوني على بني إسرائيل، وخليفتي فيهم، سلَّطْتُ عليه كلباً فأكله. قال: «نعم، كانت له عندي منزلةٌ رفيعةٌ لم أجِدْ عملَه يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة»[٢]. وقال وهب: قرأتُ في كتاب رجلٍ من الحواريِّين: إذا سُلِكَ بكَ سبيلُ البلاء فقرَّ عيناً، فإنه سُلِكَ بِكَ سبيلُ الأنبياء والصالحين، وإذا سُلِكَ بِكَ سبيلُ الرَّخاء فابْكِ على نفسك، فقد خُولِفَ بِكَ عن سبيلهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: فليَرَيَنَّ اللهُ الذين صدقوا في إيمانهم. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[٤] وغيرها. قال الزجَّاج: ليعلمَ صدقَ الصادقِ بوقوعِ صدقِه منه، وقد عَلِمَ الصادقَ من الكاذبِ قبل أن يخلُقَهما، ولكنِ القصدُ قصدُ وقوعِ العلم بما يُجازى عليه[٥]. وإنما يعلم صدقَ الصادقِ واقعاً كائناً وقوعُه، وقد علِمَ أنه سيقع. وقال النحَّاس[٦]: فيه قولان: أحدهما ـ أن يكون «صَدَقُوا» مشتقًّا من الصِّدق و«الكاذبينَ» مشتقًّا من الكَذِب الذي هو ضِدُّ الصِّدق، ويكون المعنى: فلَيُبَيِّنَنَّ اللهُ الذي صدقوا فقالوا: نحن مؤمنون واعتقدوا مثلَ ذلك، والذين كذبوا حين اعتقدوا غيرَ ذلك. والقول الآخر ـ أن يكون صدَقوا مشتقًّا من

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨١).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٠٧ .

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص٧١ .

(٤) ٣/ ١٤٠ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٠ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٧-٢٤٨ .

الصِّدق: وهو الصُّلب، والكاذبين مشتقًّا من كَذَّب إذا انهزم، فيكون المعنى: فليعلمَنَّ اللهُ الذي ثبتوا في الحرب والذين انهزموا، كما قال الشاعر:

لَيثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانِه صَدَقَا[1]

فجعل «لَيَعْلَمَنَّ» في موضع فليُبيِّنَنَّ مَجازاً.

وقراءة الجماعة: «فَلَيَعْلَمَنَّ» بفتح الياء واللام، وقرأ علي بن أبي طالب بضمِّ الياء وكسر اللام[2]، وهي تُبيِّنُ معنى ما قاله النحَّاس. ويَحتملُ ثلاثةَ معان: الأوَّل ـ أن يُعلِمَ في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا، بمعنى: يُوقفهم على ما كان منهم. الثاني ـ أن يكون المفعولُ الأوَّلُ محذوفاً تقديرُه: فليُعلمنَّ الناسَ والعالَمَ هؤلاء الصادقين والكاذبين، أي: يفضحهم ويشهرهم؛ هؤلاء في الخبر، وهؤلاء في الشر، وذلك في الدنيا والآخرة. الثالث ـ أن يكون ذلك من العلامة، أي: يضع لكلِّ طائفةٍ علامةً يشتهر بها. فالآية على هذا تنظر إلى قول النبيِّ ﷺ: «مَنْ أسرَّ سريرةً ألْبَسَهُ اللهُ رداءَها»[3].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشرك. ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي:

---

(١) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٥٤ . عَثَّر: بلدٌ في اليمن. معجم البلدان ٤/ ٨٤ .

(٢) المحتسب ٢/ ١٥٩ ، والشاذة ص١١٤ عن علي والزهري. وفي زاد المسير ٦/ ٢٥٥ عن علي وجعفر بن محمد.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٦ . والحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٠٢)، وفي الأوسط (٧٩٠٢) من حديث جندب بن سفيان ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٥: فيه حامد بن آدم، وهو كذاب. وأخرجه الطبراني بنحوه ١٠/ ١٢٧ من حديث عثمان بن عفان ﷺ. وفي إسناده سليمان بن أرقم، وهو متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ١٩٦ وقال العجلوني في كشف الخفا ٢/ ٣٥٠: قيل: ليس بحديث، لكن معناه صحيح .

يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون. قال ابن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة بن أبي سفيان والعاص بن وائل[١] .﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس الحكم ما حكموا في صفات ربهم أنه مسبوقٌ والله القادر على كلِّ شيء.

و«ما» في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون. ويجوز أن تكون «ما» في موضع رفعٍ بمعنى ساء الشيء، أو الحكمُ حكمُهم.وهذا قول الزجَّاج. وقدَّرها ابنُ كيسان تقديرين آخرين خلاف ذَينِكَ: أحدهما ـ أن يكون موضع «ما» [مع] «يَحْكُمُونَ» بمنزلة شيءٍ واحد، كما تقول: أعجبني ما صنعتَ، أي: صنيعُكَ، فـ«ما» والفعل مصدرٌ في موضع رفع، التقدير: ساء حُكمُهم. التقدير: ساء حُكمُهم. والتقدير الآخر أن تكون «ما» لا موضعَ لها من الإعراب، وقد قامت مقامَ الاسمِ لِساء، وكذلك نِعْمَ وبِئْسَ. قال أبو الحسن بن كَيْسان: وأنا أختار أن أجعل لـ«ما» موضعاً في كلِّ ما أقدِرُ عليه، نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩] وكذا ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ [المائدة:١٣] وكذا ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص:٢٨] «ما» في موضع خفضٍ في هذا كلِّه وما بعده تابعٌ لها، وكذا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة:٢٦] «ما» في موضع نصبٍ و«بَعُوضَةً» تابعٌ لها[٢].

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾ «يَرْجُو» بمعنى: يخاف، من قول الهُذَليِّ في وصف عَسَّال:

إذا لَسَعَتهُ النَّحلُ لم يَرْجُ لسعَها[٣]

وأجمع أهل التفسير على أنَّ المعنى: من كان يخافُ الموت فليعمل عملاً صالحاً

---

(١) الوسيط ٣/ ٤١٣ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٨ ، وما بين حاصرتين منه. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٦٠.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٢ . وهذا صدر لبيت قائله أبو ذؤيب الهذلي، وعجزه: وخالفَها في بيت نُوبٍ عوامِلِ. وقد سلف ٣/ ٤٣٣ .

فإنه لابُدَّ أن يأتيه. ذكره النحَّاس[١]. قال الزجَّاج: معنى «يَرجُو لِقَاءَ الله» ثواب الله[٢]، و«من» في موضع رفعٍ بالابتداء و«كَانَ» في موضع الخبر، وهي في موضع جزم بالشرط، و«يَرْجُو» في موضع خبر كان، والمجازاة ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ أي: ومَنْ جاهد في الدِّين، وصبرَ على قتال الكفار وأعمال الطاعات، فإنما يسعى لنفسه، أي: ثوابُ ذلك كلُّه له، ولا يرجع إلى الله نفعٌ من ذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عن أعمالهم. وقيل: المعنى: مَنْ جاهدَ عدوَّه لنفسه لا يريد وجهَ اللهِ فليسَ لله حاجةٌ بجهاده.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدَّقوا. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: لنُغطِّينَّها عنهم بالمغفرة لهم. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأحسن أعمالهم وهو الطاعات. ثم قيل: يَحتمِلُ أن تُكفَّرَ عنهم كلُّ معصيةٍ عملوها في الشرك، ويُثابوا على ما عملوا من حسنةٍ في الإسلام[٤]. ويَحتمِلُ أن تُكفَّرَ عنهم سيئاتُهم في الكفر والإسلام، ويُثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ نزلت في سعد بن أبي وقَّاص فيما روى التِّرمذيُّ قال: أُنزلت فيَّ أربعُ آياتٍ فذَكَر قصةً؛ فقالت أمُّ سعد: أليسَ قد أمرَ الله بالبرِّ؟! واللهِ لا أطعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً حتى أموتَ أو تكفر. قال: فكانوا إذا

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩.

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٣٤٠.

أرادوا أن يُطعموها شَجَرُوا فَاها[١]، فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٢]. وَرُوِيَ عن سعدٍ أنه قال: كنتُ بارًّا بأمي فأسلمتُ، فقالت: لتدَعَنَّ دينَكَ أو لا آكلُ ولا أشربُ حتى أموتَ فتُعَيَّرَ بي، ويُقال: يا قاتِلَ أمِّه. وبقِيَتْ يوماً ويوماً فقلتُ: يا أمَّاه، لو كانت لكِ مئةُ نفس، فخرجتْ نفساً نفساً ما تركتُ ديني هذا، فإن شئتِ فكلي، وإن شئتِ فلا تأكلي. فلمَّا رأتْ ذلك أكلَتَ ونزلَتْ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ الآية[٣]. وقال ابن عباس: نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهلٍ لأمِّه وقد فعلَتْ أمُّه مثلَ ذلك[٤]. وعنه أيضاً: نزلت في جميع الأمة؛ إذ لا يصبر على بلاء الله إلاَّ صِدِّيق.

و«حُسْنًا» نُصِبَ عند البصريين على التكرير، أي: ووصيناه حُسناً. وقيل: هو على القطع، تقديره: ووصيناه بالحُسن، كما تقول: وصَّيتُه خيراً، أي: بالخير. وقال أهل الكوفة: تقديره: ووصَّينا الإنسانَ أن يفعل حسناً فيُقَدَّرُ له فعل. وقال الشاعر:

عَجِبتُ من دَهْمَاءَ إذ تَشكونا ومن أبي دَهمَاءَ إذ يُوصينا
خيراً بها كأنَّما خافونا

أي: يوصينا أن نفعلَ بها خيراً، كقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا﴾ [ص: ٣٣] أي: يمسحُ مَسْحاً. وقيل: تقديره: ووصَّيناه أمراً ذا حُسنٍ، فأُقيمتِ الصِّفةُ مقامَ الموصوف، وحُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه[٥]. وقيل: معناه: ألزمناه حسناً[٦].

---

(١) أي: أدخلوا في شَجْره عوداً حتى يفتحوه به، والشَّجْر: مفتح الفم. النهاية (شجر).

(٢) سنن الترمذي (٣١٨٩). وهو في مسند أحمد (١٦١٤)، وأخرجه مسلم بنحوه ٤/ ١٨٧٨ (٤٤).

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٥٧ ، والوسيط ٣/ ٤١٤ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٠/ ٣٣١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٧ ، وزاد المسير ٦/ ٢٥٧ من غير نسبة. وساق القصة الطبرسي في مجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩ عن الكلبي.

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٣٦٢ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٧٦ عن السدي.

وقراءة العامة: «حُسْناً» بضمِّ الحاء وإمكان السين. وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحَّاك: بفتح الحاء والسين[١]. وقرأ الجحدري: «إحساناً» على المصدر، وكذلك في مصحف أُبيّ[٢]، التقدير: ووصَّينا الإنسانَ أن يُحسنَ إليهما إحساناً[٣]، ولا ينتصبُ بوصَّينا؛ لأنه قد استوفى مفعوليه.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعيدٌ في طاعة الوالدين في معنى الكفر. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كرَّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرُّكِ النفوس إلى نيل مراتبهم. وقوله: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مبالغةٌ على معنى: فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته. وإذا تحصَّلَ للمؤمن هذا الحكم تحصَّلَ ثمرتُه وجزاؤه وهو الجنة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية نزلت في المنافقين كانوا يقولون: آمنَّا بالله ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أذاهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة، فارتدَّ عن إيمانه[٥]. وقيل: جزِعَ من ذلك كما يجزَعُ من عذاب الله ولا يصبر على الأذيَّةِ في الله[٦]. ﴿وَلَئِن جَآءَ﴾ المؤمنين ﴿نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهم كاذبون، فقال الله لهم: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى

(١) الشاذة ص١١٤ عن عيسى والجحدري، وزاد المسير ٦/ ٢٥٦ عن ابن مسعود وأبي رجاء.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨، وزاد المسير ٦/ ٢٥٦ ونسبها أيضاً إلى أبي مجلز، وهي قراءة شاذة.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨.

(٥) سيرد معناه قريباً عن الضحاك.

(٦) الوسيط ٣/ ٤١٤.

صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: اللهُ أعلَمُ بما في صدورهم منهم بأنفسهم. وقال مجاهد: نزلت في ناسٍ كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاءٌ من الله أو مصيبةٌ في أنفسهم افتُتِنوا[١]. وقال الضحَّاك: نزلت في ناسٍ من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أُوذوا رجعوا إلى الشرك[٢]. وقال عكرمة: كان قومٌ قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر، فقُتِلَ بعضُهم، فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] فكتبَ بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة، فخرجوا، فلحِقَهم المشركون، فافتتنَ بعضهم، فنزلت هذه الآية فيهم[٣]. وقيل: نزلت في عيَّاش ابن أبي ربيعة؛ أسلم وهاجر، ثم أوذي وضُرِبَ، فارتَدَّ. وإنما عذَّبه أبو جهل والحارث وكانا أخويه لأمه. قال ابن عباس: ثم عاش بعد ذلك بدهرٍ وحَسُنَ إسلامه[٤]. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قال قتادة: نزلت في القوم الذين ردَّهم المشركون إلى مكة[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ أي: ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ جزمٌ على الأمر[٦]. قال الفرَّاء والزجَّاج: هو أمرٌ في تأويل

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٥، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٧١)، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢، وزاد المسير ٦/ ٢٥٩.

(٢) أخرجه الطبري ٨/ ٣٦٥، وهو في زاد المسير ٦/ ٢٥٩، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٥-٩٦ عن عكرمة. وأخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٦، وابن أبي حاتم (١٧١٧٠) عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٥٩، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٦، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢، ومجمع البيان ٢/ ٣٣٩.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢.

الشرط والجزاء، أي: إن تتَّبعوا سبيلَنا نحمِلْ خطاياكم، كما قال:

فـقـلـتُ ادعِـي وأدعُ إنَّ أنـدَى لِـصَـوتٍ أن يُـنَـاديَ داعـيـانِ[١]

أي: إن دعوتِ دعوتُ[٢]. قال المهدويّ: وجاء وقوع ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بعدَه على الحمل على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم. فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر. قال مجاهد: قال المشركون من قريش: نحن وأنتم لا نُبعَثُ، فإن كان عليكم وزرٌ فعلينا. أي: نحن نحمل عنكم ما يلزمكم[٣]. والحمل هاهنا بمعنى الحَمالة لا الحمل على الظهر. ورُوي أنَّ قائل ذلك الوليدُ بن المغيرة[٤].

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يعني: ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم. روي معناه عن النبيّ ﷺ، وقد تقدَّم في «آل عمران»[٥]. قال أبو أمامة الباهلي: «يُؤتى بالرجل يومَ القيامة وهو كثير الحسنات، فلا يزالُ يقتَصُّ منه حتى تفنى حسناتُه، ثم يُطالبُ فيقول الله عزَّ وجلَّ: اقتصُّوا من عبدي. فتقول الملائكة: ما بَقِيَتْ له حسناتٌ. فيقول: خُذوا من سيئات المظلوم فاجعلوا عليه» ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. وقال قتادة: من دعا إلى ضلالةٍ كان عليه وزْرُها وَوِزرُ مَن عملَ بها ولا يُنقَصُ من أوزارهم شيء. ونظيره

---

(١) نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ٤٥ إلى الأعشى، ولم نقف عليه في ديوانه. ونُسب في شرح الفصل ٧/ ٣٣ إلى ربيعة بن هشيم، وفي أمالي القالي ٢/ ٩٠ إلى الفرزدق، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩، واللسان (ندي) إلى دثار بن شيبان النمري.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩-٢٥٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٤، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦١ - ١٦٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢١٥.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩.

(٥) ٥/ ٣٩١ - ٣٩٢.

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥][١]. ونظير هذا قوله عليه السلام: «مَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً فعليه وزرُها وَوِزرُ مَنْ عملَ بها بعده من غير أن ينقُصَ من أوزارهم شيء»[٢] ورُويَ من حديث أبي هريرة وغيره[٣]. وقال الحسن: قال النبيُّ ﷺ: «مَن دعا إلى هدًى فاتُّبِعَ عليه وعُمِلَ به فله مثلُ أجورِ مَنِ اتَّبعه ولا يَنقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً، وأيُّما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتُّبِعَ عليها وعُمِلَ بها بعدَه فعليه مثلُ أوزارِ مَنْ عملَ بها ممن اتَّبعه لا يَنقُصُ ذلك من أوزارهم شيئاً» ثم قرأ الحسن: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٤].

قلت: هذا مرسل، وهو معنى حديث أبي هريرة. خرَّجه مسلم[٥]. ونصُّ حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيُّما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتُّبِعَ فإنَّ له مثلَ أوزارِ مَنِ اتَّبعه ولا يَنقُصُ من أوزارهم شيئاً، وأيُّما داعٍ دعا إلى هدًى فاتُّبِعَ فإنَّ له مثلَ أجور مَنِ اتَّبعَه ولا يَنقُصُ من أجورهم شيئاً» خرَّجه ابن ماجه في السنن[٦]. وفي الباب عن أبي جُحَيفة وجرير[٧]. وقد قيل: إنَّ المرادَ أعوانُ الظَّلمة. وقيل: أصحابُ البدع إذا اتُّبِعوا عليها. وقيل: مُحدِثو السنن الجائرة إذا عُمِلَ بها من بعدهم[٨]. والمعنى متقاربٌ، والحديث يجمع ذلك كلَّه.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/٢١٦-٢١٧ . وحديث أبي أمامة ﷺ أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٨٦). وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٩٦ .

(٢) أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ. وقد سلف ٣/٣٣٦ .

(٣) كما سيأتي قريباً.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤٣ إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) في صحيحه (٢٦٧٤)، وهو في مسند أحمد (٩١٦٠).

(٦) برقم (٢٠٥).

(٧) حديث أبي جحيفة ﷺ أخرجه ابن ماجه (٢٠٧)، وحديث جرير ﷺ سلف آنفاً.

(٨) النكت والعيون ٤/٢٧٨. وفي (د) و(م): السنن الحادثة. وفي (ظ): الجارية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ذكر قصة نوحٍ تسليةً لنبيِّه ﷺ، أي: ابتُلِي النبيون قبلَكَ بالكفار فصبرا. وخصَّ نوحاً بالذكر، لأنَّه أوَّلُ رسولٍ أُرسِلَ إلى أهل[١] الأرض وقد امتلأت كفراً على ما تقدَّم بيانُه في «هود»[٢]. وأنه لم يلقَ نبيٌّ من قومه ما لقيَ نوحٌ على ما تقدَّم في «هود» عن الحسن. ورُوِيَ عن قتادة عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أوَّلُ نبيٍّ أُرسِلَ نوح»[٣] قال قتادة: وبُعِثَ من الجزيرة[٤]. واختُلِفَ في مبلَغِ عمره، فقيل: مبلَغُ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه. قال قتادة: لبِثَ فيهم قبل أن يدعوهم ثلاث مئة سنة، ودعاهم ثلاث مئة سنة، ولبِثَ بعد الطوفان ثلاث مئةٍ وخمسين سنة[٥]. وقال ابن عباس: بُعِثَ نوحٌ لأربعين سنة، ولبِثَ في قومه ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وعاش بعد الغرق ستين سنةً حتى كثُرَ الناس وفشَوا[٦]. وعنه أيضاً: أنه بُعِثَ وهو ابن مئتين وخمسين سنة، ولبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً[٧]، وعاش بعد الطوفان مئتي سنة. وقال وهب: عُمِّرَ نوحٌ ألفاً وأربع مئة سنة. وقال كعب الأحبار: لبِثَ نوحٌ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين

---

(١) كلمة أهل من (ظ).

(٢) ١١/ ١٢٩.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٤٧٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٢/ ٢٤٣. وأخرجه بنحوه أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من طريق قتادة أيضاً، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٦٢٢) و(١٠٤٧٨) و(١٠٥٠٣).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٧٨. وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٩٦).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٦١، وابن أبي حاتم (١٧١٩٤)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤١٥. وهو في النكت والعيون ٤/ ٢٧٨-٢٧٩. وسلف ٩/ ٢٥٩.

(٧) كلمة عاماً من (ظ).

عاماً، وعاش بعد الطُّوفان سبعين عاماً، فكان مبلَغُ عمره ألفَ سنةٍ وعشرين عاما[١]. وقال عون بن أبي شدَّاد: بُعِثَ نوحٌ وهو ابن خمسين وثلاث مئة سنة، ولبِثَ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وعاش بعد الطُّوفان ثلاث مئة سنة وخمسين سنة، فكان مبلغُ عمره ألفَ سنةٍ وستَّ مئة سنة وخمسين سنة[٢]. ونحوه عن الحسن؛ قال الحسن: لمَّا أتى ملَكُ الموت نوحاً ليقبضَ روحه قال: يا نوحُ، كم عشْتَ في الدنيا؟ قال: ثلاث مئةٍ قبل أن أُبعث، وألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً في قومي، وثلاث مئة سنة وخمسين سنة بعد الطُّوفان. قال ملَكُ الموت: فكيف وجدتَ الدنيا؟ قال نوح: مثلَ دارٍ لها بابان، دخلتُ من هذا وخرجتُ من هذا[٣]. ورُوي من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا بَعثَ الله نوحاً إلى قومه بعثَه وهو ابن خمسين ومئتي سنة، فلبثَ في قومه ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وبقي بعد الطُّوفان خمسين ومئتي سنة، فلَّما أتاه ملَكُ الموت قال: يا نوح، يا أكبر الأنبياء، ويا طويل العمر، ويا مُجابَ الدعوة، كيف رأيتَ الدنيا؟ قال: مثلَ رجلٍ بُنيَ له بيتٌ له بابان، فدخل من واحدٍ وخرجَ من الآخر» وقد قيل: «دخلَ من أحدهما وجلسَ هُنيهةً، ثم خرج من الباب الآخر»[٤]. وقال ابن الورد[٥]: بَنَى نوحٌ بيتاً من قصب، فقيل له: لو بنيتَ غير هذا. فقال: هذا كثيرٌ لمن يموت[٦]. وقال أبو المهاجر: لبثَ نوحٌ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسينَ عاماً في بيتٍ من شَعر، فقيل له: يا نبيَّ الله، ابنِ بيتاً. فقال: أموتُ اليوم[٧]، أموتُ

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٧٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٠ ، وابن أبي حاتم (١٧١٩٨). وهو في النكت والعيون ٤/ ٢٧٩ ، وسلف مختصراً ٩/ ٢٥٩ .

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٢٨١ .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٢٩)، وابن عساكر ٦٣/ ٢٨١ .

(٥) في (د) و(م): الوردي، والتصويب من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الصادر، واسمه وهب بن الورد.

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٤٥ ، والبيهقي في الشعب (١٠٧٥١)، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠ .

(٧) بعدها في (م) كلمة أو، وهي ليست في النسخ الخطية ولا في المصادر.

غداً[١]. وقال وهب بن مُنبِّه: مرَّتْ بنوحٍ خمسُ مئة سنةٍ لم يقرَبِ النساءَ وَجَلاً من الموت[٢]. وقال مقاتل وجُويبر: إنَّ آدم عليه السلام حين كبِرَ ورقَّ عظمُه قال: يا ربِّ إلى متى أكدُّ وأسعى؟ قال: يا آدم، حتى يولَدَ لكَ ولدٌ مختون. فوُلِدَ له نوحٌ بعد عشرةِ أبطُنٍ، وهو يومئذٍ ابنُ ألف سنةٍ إلاَّ ستين عاماً. وقال بعضهم: إلاَّ أربعين عاماً. والله أعلم. فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. وكان اسمُ نوحٍ السكن. وإنمَّا سُمِّي السكن؛ لأنَّ الناس بعد آدم سكنوا إليه، فهو أبوهم[٣]. ووُلِدَ له سامٌ وحامٌ ويافث، فولَدَ سامٌ العربَ وفارسَ والروم، وفي كل هؤلاء خير، وولَدَ حامٌ القبطَ والسودانَ والبربر. ووَلَدَ يافثُ التركَ والصقالبةَ ويأجوجَ ومأجوج. وليس في شيء من هؤلاء خير[٤]. وقال ابن عباس: في ولد سامٍ بياضٌ وأُدمة، وفي ولدِ حامٍ سوادٌ وبياضٌ قليل. وفي ولَدِ يافث ـ وهم الترك والصقالبة ـ الصُّفرةُ والحُمرة. وكان له ولدٌ رابعٌ وهو كنعان الذي غرق، والعرب تسمِّيه يام[٥]. وسُمِّي نوحٌ نوحاً لأنه ناحَ على قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى وناحَ عليهم[٦]. وذكر القشيري أبو القاسم عبد الكريم في كتاب «التخبير» له: يُروى أنَّ نوحاً عليه السلام كان اسمُه يشكُر، ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه: يا نوح، كم تنوح؟ فسُمِّي نوحاً، فقيل: يا رسول الله، فأيُّ شيءٍ كانت خطيئته؟ فقال: «إنَّه مرَّ بكلبٍ

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٧٥٠)، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٣٩، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠.

(٣) أخرجه ابن عساكر ٦٢/ ٢٤٢.

(٤) أخرجه البزار (كشف الأستار) (٢١٨)، وابن عدي ٧/ ٢٧٢٥ من طريق محمد بن يزيد بن سنان، عن أبيه، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً. محمد بن يزيد بن سنان وأبوه ضعيفان. ميزان الاعتدال ٤/ ٦٩ و٤٢٧.

(٥) أخرجه ابن سعد ١/ ٤٠-٤١ عن هشام بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﷺ. هشام بن السائب وأبوه متروكان.

(٦) هو تتمة قول مقاتل وجويبر الآنف الذكر.

فقال في نفسه: ما أقبحَه! فأوحى الله إليه: اخلُقْ أنتَ أحسنَ من هذا». وقال يزيد الرَّقاشي: إنما سُمِّي نوحاً لطول ما ناحَ على نفسه[١]. فإن قيل: فلِمَ قال: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ولم يقل: تسع مئة وخمسين عاماً؟ ففيه جوابان: أحدهما ـ أنَّ المقصودَ به تكثيرُ العدد، فكان ذِكرُه الألفَ أكثرَ في اللفظ وأكثرَ في العدد. الثاني ـ ما رُوي أنه أُعطيَ من العمر ألفَ سنة، فوهبَ من عمره خمسين سنةً لبعض ولده، فلمَّا حضرته الوفاة رجع في استكمال الألف، فذكر اللهُ تعالى ذلك تنبيهاً على أنَّ النَّقيصةَ كانت من جهته ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جُبير وقتادة: المطر. الضحَّاك: الغرق. وقيل: الموت. روَته عائشة رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ. ومنه قول الشاعر:

أفناهمُ طوفانُ موتٍ جارفُ[٢]

قال النحَّاس[٣]: يُقال لكلِّ كثيرٍ مُطيفٍ بالجميع من مطرٍ أو قتلٍ أو موتٍ: طُوفان.

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال و«ألْفَ سَنَةٍ» منصوبٌ على الظرف «إلَّا خَمسِينَ عَامًا» منصوبٌ على الاستثناء من الموجب. وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول؛ لأنه مستغنًى عنه كالمفعول. فأما المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعولٌ مَحْضٌ. كأنَّك قلت: استثنيتُ زيداً[٤].

تنبيه ـ روى حسان بن غالب بن نَجيح أبو القاسم المصري، حدثنا مالك بن أنس، عن الزُّهريِّ، عن ابن المسيِّب، عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٢٦) و(١٥٧٦٥)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٥١ ، وابن عساكر ٦٢/ ٢٤١ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٧٨-٢٧٩ . وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧١ ، وابن أبي حاتم (١٧٢٠٢). وحديث عائشة رضي الله عنها أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً (١٧١٩٩).

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢١٧ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٠ و٢٥٢ .

«كان جبريلُ يُذاكرني فَضْلَ عمرَ، فقلتُ: يا جبريلُ، ما بلَغَ فضلُ عمر؟ قال لي: يا محمد، لو لبثتُ معكَ ما لبِثَ نوحٌ في قومه ما بلَغْتُ لكَ فضل عمر» ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي، وقال: تفرَّدَ بروايته حسان بن غالب عن مالك، وليس بثابتٍ من حديثه[١].

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ معطوف على الهاء[٢]. ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الهاء والألف في «جَعَلنَاهَا» للسفينة، أو للعقوبة، أو للنجاة؛ ثلاثة أقوال[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ قال الكسائي: «وإبرَّاهيمَ» منصوبٌ بـ«أنجَينا» يعني أنه معطوفٌ على الهاء. وأجاز الكسائي أن يكون معطوفاً على نوح، والمعنى: وأرسلنا إبراهيم. وقول ثالث: أن يكون منصوباً بمعنى: واذكُرْ إبراهيم[٤]. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: اتَّقوا عقابه وعذابه. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من عبادة الأوثان. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٥].

---

(١) وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك كما في لسان الميزان ٢/ ١٨٩، وتمام الرازي في فوائده (١٤٦٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/ ١٣٧-١٣٨ من طريق الفتح بن نصر، عن حسان بن غالب، به. قال الدارقطني: هذا لا يصح عن مالك، وفتح وحسان ضعيفان، وهذا الحديث موضوع.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢.

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٣٦.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أي: أصناما[١]. قال أبو عبيدة: الصَّنم: ما يُتَّخذُ من ذهبٍ أو من فضةٍ أو نحاس، والوثن: ما يُتَّخذُ من جَصٍّ أو حجارة[٢]. الجوهري: الوثن: الصنم والجمع وُثُنٌ وأوثانٌ، مثل أُسُد وآساد[٣]. ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ قال الحسن: معنى «تَخلُقُونَ»: تنحتون[٤]. فالمعنى: إنما تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها[٥]. وقال مجاهد: الإفك: الكذب[٦]. والمعنى: تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب[٧]. وقرأ أبو عبد الرحمن: «وَتخَلَّقُونَ»[٨]. وقُرِئ: «تُخَلِّقُونَ» بمعنى الكثير من خَلَّق و«تَخَلَّقُونَ» من تخَلَّق بمعنى تَكَذَّب وتخرَّص. وقُرِئ: «أفِكًا» وفيه وجهان: أن يكون مصدراً نحو كذِب ولعِب، والإفك مخففاً منه كالكذب واللعب. وأن يكون صفةً على فَعِل أي خَلِقاً أفِكًا، أي: ذا إفكٍ وباطل[٩]. و«أوثانًا» نُصِبَ بِـ«تَعبُدُونَ» و«ما» كافة. ويجوز في غير القرآن رفعُ أوثانٍ على أن تُجعَلَ «ما» اسماً؛ لأنَّ و«تَعبُدُونَ» صِلتُه، وحُذفتِ الهاء لطول الاسم، وجُعِلَ أوثان خبر إنَّ. فأمَّا «وتَخلُقُونَ إفكًا» فهو منصوبٌ بالفعل لا غير[١٠]. وكذا ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: اصرفوا رغبتَكم في أرزاقكم إلى الله، فإيَّاه فاسألوه وحدَه دون غيره.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٥ . ونسبه في زاد المسير ٦/ ٢٦٤ إلى مقاتل. وأخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٣ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢١٠) عن قتادة.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١١٤ مختصراً.

(٣) الصحاح (وثن).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٥ .

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١ بنحوه.

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥ ، والمحتسب ٢/ ١٦٠ وزاد نسبتها إلى زيد بن علي، والشاذة ص١١٤ وزاد نسبتها إلى علي بن أبي طالب وابن الزبير، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١١ وزاد نسبتها إلى عون العقيلي وقتادة وابن أبي ليلى.

(٩) الكشاف ٣/ ٢٠١ . وقراءة: «تُخلِّقون» لم نقف عليها عند غير المصنِّف، وهي قراءة شاذة. وقراءة: «أفِكاً» في المحتسب ٢/ ١٦٠ عن فضيل بن مرزوق وابن الزبير، والشاذة ص١١٤ عن ابن الزبير.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢-٢٥٣ .

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فقيل: هو من قول[1] إبراهيم أي التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ قراءةُ العامَّة بالياء على الخبر والتوبيخ لهم، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. قال أبو عبيد: لِذكْرِ الأمم، كأنه قال: أوَلَم يرَ الأممُ كيف. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثَّاب وحمزة والكسائي: «تَرَوْا» بالتاء خطاباً؛ لقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾[2]. وقد قيل: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ خطابٌ لقريش ليس من قول إبراهيم. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يعني الخلق والبعث. وقيل: المعنى: أوَ لَم يروا كيفَ يُبدِئُ اللهُ الثمارَ فتحيا، ثم تفنى، ثم يُعيدها أبداً. وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولدِ ولداً، وكذلك سائر الحيوان. أي: فإذا رأيتم قدرتَه على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له: كُنْ فيكون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: سيروا في الأرض

---

(١) في (م): قوله. والمثبت من النسخ الخطية.

(٢) قراءة حمزة والكسائي وأبو بكر في المشهور عنه عن عاصم في السبعة ص٤٩٨ ، والتيسير ص١٧٣ .

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتِهم وتفاوتِ هيئاتِهم واختلافِ ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكم؛ لتعلموا بذلك كمالَ قدرة الله. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين[١]، وهما لغتان مثل الرأفةِ والرآفةِ وشِبْهِه[٢]. الجوهري: أنشأه اللهُ خلقَه، والاسم النَّشأة، والنَّشاءة بالمدِّ عن أبي عمرو بن العلاء[٣]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بعدله. ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بفضله. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ترجعون وتُرَدُّون[٤].

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال الفرَّاء: معناه: ولا مَنْ في السماء بمعجزين الله. وهو غامضٌ في العربية؛ للضمير الذي لم يظهر في الثاني، وهو كقول حسان[٥]:

فمَنْ يَهْجو رسولَ اللهِ منكم ... ويَمدحُهُ ويَنصرُهُ سَواءُ

أرادَ: ومَنْ يمدحه وينصره سواء، فأضمرَ مَنْ[٦]. وقاله عبد الرحمن بن زيد[٧]. ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي: مَنْ له. والمعنى: إنَّ الله لا يُعجِزُه أهلُ الأرض في الأرض ولا أهلُ السماءِ إن عَصَوه. وقال قُطْرُب: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتُني فلانٌ بالبصرةِ ولا هاهنا، بمعنى: لا يفوتني بالبصرة لو صارَ إليها. وقيل: لا يستطيعون هرباً في الأرض ولا في

---

(١) السبعة ص٤٩٨، والتيسير ص١٧٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١.

(٣) الصحاح (نشأ).

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٤.

(٥) في ديوانه ص٦٤.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٢.

السماء[١]. وقال المبرِّد: والمعنى: ولا مَنْ في السماء، على أنَّ مَنْ ليست موصولةً ولكن تكون نكرةً، و«في السَّمَاءِ» صفةٌ لها، فأُقيمتِ الصفةُ مقام الموصوف. وردَّ ذلك عليُّ بن سليمان، وقال: لا يجوز. وقال: إنَّ مَنْ إذا كانت نكرةً فلابُدَّ مِنْ وَصْفِها، فصِفَتُها كالصِّلة، ولا يجوز حذفُ الموصولِ وتركُ الصلة؛ قال: والمعنى: إنَّ الناسَ خُوطبوا بما يعقلون، والمعنى: لو كنتم في السماء ما أعجزتُمُ الله، كما قال: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨][٢]. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ويجوز «نَصِيرٌ» بالرفع على الموضع، وتكون «مِن» زائدة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: من الجنة، ونسبَ اليأسَ إليهم والمعنى: أُويِسوا. وهذه الآيات اعتراضٌ من الله تعالى تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة. ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ثم اتَّفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: من إذايتها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرِقْه بعد ما أُلقِيَ فيها ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾.

وقراءة العامة: «جَوَابَ» بنصب الباء على أنه خبر كان و «أنْ قَالُوا» في محلِّ الرفع اسم كان. وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار: «جَوَابُ» بالرفع إلى أنه اسم «كان» و«أنْ» في موضع الخبر نصباً[٣].

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقرأ حفص وحمزة: «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ». وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «مَوَدَّةُ

(١) قول قطرب وما بعده في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٤ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٣ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٢ . ونسبة قراءة الرفع إلى عمرو بن دينار لم نقف عليها إلا عند المصنف، وهي قراءة شاذة.

بَيْنِكُمْ»[١]. والأعشى عن أبي بكر عن عاصم وابن وثّاب والأعمش: «مَوَدَّةٌ بَينَكُم»[٢]. الباقون. «مَوَدَّةَ بَينَكُم». فأما قراءة ابن كثير ففيها ثلاثة أوجه، ذكر الزجّاج منها وجهين: أحدهما ـ أنَّ المودة ارتفعت على خبر إنَّ، وتكون «ما» بمعنى الذي. والتقدير: إنَّ الذي اتَّخذتموه من دون الله أوثاناً مودّةُ بينِكم. والوجه الآخر: أن يكون على إضمار مبتدأ، أي: هي مودَّةُ، أو تلك مودَّةُ بينِكم. والمعنى: آلهتكم أو جماعتكم مودَّةُ بينِكم[٣]. قال ابن الأنباري: «أوثَاناً» وقفٌ حسنٌ لمن رفعَ المودَّةَ بإضمار ذلك مودَّة بينكم، ومن رفعَ المودَّةَ على أنها خبرُ إنَّ لم يقف[٤]. والوجه الثالث الذي لم يذكره أن يكون «مَوَدَّةُ» رفعا بالابتداء و«فِي الحيَاةِ الدُّنيَا» خبره؛ فأما إضافة «مَوَدَّةُ» إلى «بَيْنَكُم» فإنه جعل «بَينَكُم» اسماً غير ظرف، والنَّحويُّون يقولون: جعله مفعولاً على السَّعة. وحكى سيبويه: يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدار. ولا يجوز أن يُضافَ إليه وهو ظرف؛ لعلةٍ ليس هذا موضع ذِكْرُها. ومن رفعَ «مَوَدَّةُ» ونوَّنَها فعلى معنى ما ذكر، و«بَيْنَكُم» بالنصب ظرفاً[٥]. ومن نصب «مَوَدَّةَ» ولم ينوِّنْها جعلها مفعولةً بوقوع الاتخاذ عليها، وجعل «إنَّما» حرفاً واحداً ولم يجعلها بمعنى الذي[٦]. ويجوز نصبُ المودَّة على أنه مفعولٌ من أجله، كما تقول: جئتُكَ ابتغاءَ الخير، وقصدتُ فلاناً مودَّةً له. «بينكم» بالخفض[٧]. ومن نوَّن «مَوَدَّةً» ونصبها فعلى ما ذُكِرَ «بَيْنَكُم»

---

(١) السبعة ص٤٩٨-٤٩٩، والتيسير ص١٧٣ .

(٢) رواية الأعشى عن أبي بكر عن عاصم في الشاذة ص١١٥ ، والمشهور في رواية أبي بكر عن عاصم: «مودَّةُ بينَكم»، وهي قراءة نافع وابن عامرٍ أيضاً. السبعة ص٤٩٩ ، والتيسير ص١٧٣ . قلنا: وقد نسب ابن الجوزي تلك القراءة الشاذة في زاد المسير ٦/ ٢٦٧ إلى ابن عباس وسعيد بن المسيب وعكرمة وابن أبي عبلة.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٧ .

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ . وقول سيبويه في الكتاب ١/ ١٧٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ .

بالنصب من غير إضافة[١]. قال ابن الأنباري: ومن قرأ: «مَوَدَّةَ بَينَكُمْ» و«مَوَدَّةَ بَينَكُمْ» لم يقف على الأوثان، ووقفَ على «الحياة الدنيا»[٢]. ومعنى الآية: جعلتُم الأوثانَ تتحابون عليها وعلى عبادتها في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تتبرأ الأوثان من عُبَّادها والرؤساء من السَّفلة[٣]، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هو خطابٌ لعبدةِ الأوثان الرؤساء منهم والأتباع. وقيل: تدخل فيه الأوثان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ولُوطٌ أوَّلُ مَنْ صدَّق إبراهيمَ حين رأى النارَ عليه برداً وسلاماً[٤]. قال ابن إسحاق: آمنَ لوطٌ بإبراهيمَ وكان ابنَ أخته، وآمنت به سارَّة وكانت بنتَ عمِّه[٥]. ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ قال النَّخعيُّ وقتادة: الذي قال: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ هو إبراهيم عليه السلام[٦]. قال قتادة: هاجر من كوثا وهي قريةٌ من سواد الكوفة إلى حرَّان ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وامرأته سارة[٧]. قال الكلبي: هاجر من أرض حرَّان إلى فلسطين، وهو أول من هاجر من أرض الكفر. قال مقاتل: هاجر إبراهيم وهو ابن خمسٍ وسبعين سنة[٨].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣.
(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧.
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٥.
(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٥.
(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٨١.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٤.
(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٨١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٦.
(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٦.

وقيل: الذي قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ لوطٌ عليه السلام[١]. ذكر البيهقيُّ عن قتادة قال: أوَّلُ مَنْ هاجر إلى الله عزَّ وجلَّ بأهله عثمان بن عفان ﷺ. قال قتادة: سمعتُ النَّضرَ بن أنس يقول: سمعتُ أبا حمزة يعني أنس بن مالك يقول: خرج عثمان بن عفان ومعهُ رقيَّةُ بنتُ رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرُهم، فقَدِمتِ امرأةٌ من قريش فقالت: يا محمد، رأيتُ خَتنكَ ومعه امرأتُه. قال: «على أيِّ حالٍ رأيتِهما؟» قالت: رأيتُه وقد حملَ امرأتَه على حمارٍ من هذه الدَّبَّابة[٢] وهو يسوقُها، فقال رسول الله ﷺ: «صحِبَهُما الله، إنَّ عثمانَ لأوّلُ مَنْ هاجر بأهلِه بعد لوط» قال البيهقي: هذا في الهجرة الأولى، وأما الهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مَبعثِ رسول الله ﷺ[٣]. ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني[٤]. ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم. وتقدَّم الكلامُ في الهجرة في «النساء»[٥] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: مَنَّ الله عليه بالأولاد، فوهبَ له إسحاق ولداً ويعقوبَ ولدَ ولدٍ. وإنما وهبَ له إسحاق من بعد إسماعيل ويعقوب من إسحاق.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فلم يبعثِ اللهُ نبيًّا بعد إبراهيم إلاَّ من صُلبه. ووحَّدَ الكتاب؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة، والمراد التوراة والإنجيل [والفرقان]، فهو عبارةٌ عن الجمع، فالتوراة أُنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده، والفرقان على محمدٍ من ولده ﷺ وعليهم أجمعين[٦]. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٤.

(٢) أي: الضِّعاف التي تدِبُّ في المشي ولا تسرع. النهاية (دبب).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٩٧. والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٣١١)، والأوائل (١٢٦)، والآحاد والمثاني (١٢٣) و(٢٩٧٨)، والطبراني (١٤٣) من طريق بشار بن موسى الخفاف، عن الحسن ابن زياد البرجمي، عن قتادة، به. قال الهيثمي في المجمع ٩/ ٨١ : فيه الحسن بن زياد البرجمي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات! قلنا: وبشار بن موسى قال فيه الحافظ في التقريب: ضعيف، كثير الغلط، كثير الحديث.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٦٨.

(٥) ٧/ ٦٧ فما بعد.

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٣٥٥ بنحوه. وما بين حاصرتين منه.

﴿ٱلدُّنْيَا﴾ يعني اجتماع أهل الملل عليه. قاله عكرمة. وروى سفيان عن حُميد بن قيس قال: أمر سعيد بن جُبير إنساناً أن يسأل عكرمة عن قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فقال عكرمة: أهل الملل كلُّها تدَّعيه وتقول: هو مِنَّا. فقال سعيد بن جبير: صدق. وقال قتادة: هو مثل قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ١٢٢] أي: عاقبةً وعملاً صالحاً وثناءً حسناً. وذلك أنَّ أهل كلِّ دينٍ يتولَّونه[١]. وقيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّ أكثرَ الأنبياء من ولده[٢]. ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ليس ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ داخلاً في الصِّلة وإنما هو تبيين[٣] وقد مضى في «البقرة»[٤] بيانُه. وكلُّ هذا حثٌّ على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدِّينِ الحقِّ.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ قال الكسائي: المعنى: وأنجينا لوطاً، أو:

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٨١.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤-٢٥٥.

(٤) ٢/ ٤٠٦.

أرسلنا لوطاً. قال: وهذا الوجه أحبُّ إليَّ[١]. ويجوز أن يكون المعنى: واذكر لوطاً إذ قال لقومه موبِّخاً أو مُحذِّراً: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ تقدَّم القراءة في هذا وبيانُها في سورة «الأعراف»[٢]. وتقدَّم قصة لوطٍ وقومِه في «الأعراف»[٣] و«هود»[٤] أيضاً.

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قيل: كانوا قُطَّاعَ الطريق. قال ابن زيد. وقيل: كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة. حكاه ابن شجرة. وقيل: إنه قَطْعُ النَّسل بالعدول عن النساء إلى الرجال. قاله وهب بن مُنبِّه. أي: استغنوا بالرجال عن النساء[٥].

قلتُ: ولعلَّ الجميعَ كان فيهم، فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، ويستغنون عن النساء بذلك.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ النادي: المجلس. واختُلِفَ في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه، فقالت فرقة: كانوا يخذِفون الناس[٦] بالحصى، ويستَخِفُّون بالغريب والخاطر عليهم[٧]. وروتْه أمُّ هانئ عن النبيِّ ﷺ؛ قالت أمُّ هانئ: سألتُ رسول الله ﷺ عن قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: «كانوا يخذِفون مَنْ يمرُّ بهم ويسخرون منه، فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه» أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»[٨]، وذكره النحَّاس والثعلبي والمهدي والماوردي[٩]. وذكر الثعلبي:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٣٥٥.

(٢) ٩/ ٢٧٨.

(٣) ٩/ ٢٧٣ فما بعد.

(٤) ١١/ ١٧٣ فما بعد.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٨٢

(٦) في (د) و(م): النساء. والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥.

(٨) (١٦١٧)، وأخرجه أحمد (٢٦٨٩١)، والترمذي (٣١٩٠) من طريق سماك بن حرب، عن أبي صالح مولى أم هانئ، عن أم هانئ، به. إسناده ضعيف لضعف أبي صالح مولى أم هانئ، واسمه باذام، ويقال: باذان.

(٩) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠، والنكت والعيون ٥٤/ ٢٨٢ ولم يسُقْ لفظه.

وقال معاوية قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ قومَ لوطٍ كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كلِّ رجلٍ قصعةٌ فيها الحصى للخذف، فإذا مرَّ بهم عابرٌ قذفوه، فأيُّهم أصابَه كان أولى به» يعني: يذهَبُ به للفاحشة، فذلك قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾. وقالت عائشة وابن عباس والقاسم بن أبي بَزَّة والقاسم بن محمد: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم[١]. وقال منصور عن مجاهد[٢]: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضُهم يرى بعضاً[٣]. وعن مجاهد: كان من أمرهم لعبُ الحمام، وتطريفُ الأصابع بالحِنَّاء، والصَّفير، والخذف، ونبذُ الحياء في جميع أمورهم. قال ابن عطية[٤]: وقد توجد هذه الأمور في بعض عُصاةِ أمة محمدٍ ﷺ؛ فالتناهي واجب. قال مكحول: في هذه الأمة عشرةٌ من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك، وتطريفُ الأصابع بالحِنَّاء، وحلُّ الإزار، وتنقيض الأصابع[٥]، والعمامةُ التي تُلَفُّ حول الرأس، والتشابك، ورميُ الجُلاهِق[٦]، والصفير، والخذف، واللُّوطية[٧]. وعن ابن عباس قال: إنَّ قوم لوطٍ كانت فيهم ذنوبٌ غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتمُ بعضُهم بعضاً، ويتضارطون في مجالسهم، ويخذفون، ويلعبون بالنَّرد والشِّطرَنج، ويلبسون المصبغات، ويتناقرون بالدِّيَكة، ويتناطحون بالكباش، ويُطرِّفون أصابعهم بالحِنَّاء، وتتشبَّه الرجالُ بلباس النساء، والنساءُ بلباس الرجال، ويضربون المكوسَ على كلِّ عابر، ومع هذا كلِّه كانوا يشركون بالله، وهم أوَّلُ مَنْ ظهر على أيديهم اللُّوطيةُ

---

(١) أخرجه الطبري ٨/ ٣٨٩ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٧٢) عن عائشة، وابن أبي حاتم (١٧٢٧٣) عن القاسم بن محمد، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥ عن ابن عباس.

(٢) في (د) و (ظ): وقال مجاهد ومنصور. والمثبت من (م) والمصادر.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٩١ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٧٤)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٤٧).

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥ ، وما قبله منه.

(٥) أي: فرقعتها. الصحاح (فرقع).

(٦) أي: البندق الذي يرمى. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٤٣ .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٤٦٦ مختصراً.

والسِّحاق. فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللَّجاج فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنَّ ذلك لا يكون ولا يقدِرُ عليه. وهم لم يقولوا هذا إلاَّ وهم مصمِّمون على اعتقاد كَذِبه. وليس يصِحُّ في الفطرة أن يكون معاندٌ يقول هذا. ثم استنصر لوطٌ عليه السلام ربَّه، فبعثَ عليهم ملائكةً لعذابهم، فجاؤوا إبراهيمَ أوّلاً مبشِّرين بنصرة لوطٍ على قومه حسبما تقدَّم بيانُه في «هود»[١] وغيرها.

وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائي: ﴿لَنُنْجِيَنَّه وأهلَهُ﴾ بالتخفيف. وشدَّد الباقون. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: ﴿إنَّا مُنْجُوكَ وأهلَكَ﴾ بالتخفيف. وشدَّد الباقون. وهما لغتان: أنْجَى ونَجَّى بمعنى. وقد تقدَّم[٢]. وقرأ ابن عامر: ﴿إنَّا مُنَزِّلونَ﴾ بالتشديد، وهي قراءة ابن عباس. الباقون بالتخفيف[٣]. وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال قتادة: هي الحجارة التي أُبقيت[٤]. وقاله أبو العالية. وقيل: إنه يُرجَمُ بها قومٌ من هذه الأمة[٥]. وقال ابن عباس: هي آثارُ منازلهم الخَرِبة. وقال مجاهد: هو الماء الأسود على وجه الأرض[٦]. وكلُّ ذلك باقٍ فلا تعارض.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين. وقد تقدَّم

---

(١) ١١/ ١٨٥ .

(٢) ٨/ ٤١٣ .

(٣) السبعة ص٥٠٠ ، والتيسير ص٩٠ و١٧٣ ، والنشر ٢/ ٢٥٩ . وقرأ خلف وهو من العشرة: «لننجينه» و«مُنجوك» بالتخفيف.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧ . وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨ ، والطبري ١٨/ ٣٩٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٩٤).

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٥ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٥٨ .

ذِكرُهم وفسادُهم في «الأعراف»[١] و«هود»[٢].

﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ قال يونس النَّحوي[٣]: أي: اخشوا الآخرةَ التي فيها الجزاء على الأعمال[٤]. ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تكفروا فإنه أصلُ كلِّ فساد. والعُثُوُّ والعِثيُّ أشدُّ الفساد. عَثِيَ يَعثَى وعَثَا يَعثُو بمعنى واحد[٥]. وقد تقدَّم[٦]. وقيل: ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ أي: صدِّقوا به، فإنَّ القوم كانوا يُنكرونه.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ قال الكسائي: قال بعضهم: هو راجعٌ إلى أوَّل السورة، أي: ولقد فتنَّا الذين من قبلهم وفتنَّا عاداً وثمود. قال: وأحبُّ إليّ أن يكون معطوفاً على «فأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» وأخذت عاداً وثموداً. وزعم الزجَّاج أن التقدير: وأهلكنا عاداً وثموداً[٧]. وقيل: المعنى: واذكُرْ عاداً إذ أرسلنا إليهم هوداً فكذَّبوه فأهلكناهم، وثموداً أيضاً أرسلنا إليهم صالحاً فكذَّبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عاداً بالريح العقيم. ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ يا معشر الكفار ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ بالحِجْرِ والأحقاف آياتٌ في إهلاكهم، فَحُذِفَ فاعلُ التبيُّن[٨]. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة.

---

(١) ٩/ ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) ١١/ ١٩١-١٩٧.

(٣) هو يونس بن يحيى بن نباتة القرشي المدني، وهو من رواة الحديث، توفي سنة ٢٠٦هـ الكاشف ٢/ ٤٠٤.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤١٩ عن مقاتل.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ١٥٠.

(٦) ٩/ ٢٦٩.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٦٨.

(٨) الوسيط ٣/ ٤٢٠، وزاد المسير ٦/ ٢٧١-٢٧٢، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٦٠ بنحوه.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الحق[١]. ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما وكانوا مستبصرين في الضلالة. قاله مجاهد. والثاني ـ كانوا مستبصرين قد عرفوا الحقَّ من الباطل بظهور البراهين. وهذا القول أشبه؛ لأنَّه إنَّما يُقال: فلانٌ مستبصِرٌ إذا عرف الشيء على الحقيقة[٢]. قال الفرَّاء[٣]: كانوا عقلاءَ ذَوي بصائر، فلم تنفعهم بصائرهم. وقيل: أتوا ما أتوا وقد تبيَّنَ لهم أن عاقبتَهم العذاب[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ﴾ قال الكسائي: إن شئتَ كان محمولاً على عاد، وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وصدَّ قارونَ وفِرعونَ وهامان[٥]. وقيل: أي: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن الحقِّ وعن عبادة الله.

﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ أي: فائتين[٦]. وقيل: سابقين في الكفر[٧]. بل قد سبقهم للكفر قرونٌ كثيرةٌ فأهلكناهم. ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ قال الكسائي: «فَكُلًّا» منصوبٌ بـ«أخَذْنَا»[٨] أي: أخذنا كُلًّا بذنبه. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني قوم لوط.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧.
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.
(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.
(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧.
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٧.
(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.

والحاصب: ريحٌ يأتي بالحصباء وهي الحصى الصِّغار[١]. وتُستعمل في كلِّ عذاب. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني ثمود وأهل مدين. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قوم نوح وقوم فرعون[٢]. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلَهم وبعثَ إليهم الرسل وأزاح العذر.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ قال الأخفش: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ وقفٌ تام، ثم قصَّ قِصَّتها فقال: ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأنَّ «اتَّخَذَتْ بَيتاً» صلةٌ للعنكبوت، كأنه قال: «كمثل التي اتخذت بيتاً»، فلا يَحسُنُ الوقفُ على الصلة دون الموصول، وهو بمنزلة قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] فيحمل صلةٌ للحمار، ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل. قال الفرَّاء: هو مثلٌ ضربَه الله سبحانه لمنِ اتَّخذَ من دونه آلهةً لا تنفعه ولا تضرُّه؛ كما أنَّ بيتَ العنكبوت لا يقيها حرًّا ولا برداً. ولا يَحسُنُ الوقفُ على العنكبوت؛ لأنه لمَّا قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء، فشُبِّهتِ الآلهةُ التي لا تنفع ولا تضرُّ به[٣].

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: أضعف البيوت[٤] ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ قال الضحاك:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧-٤٦٨ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩ .

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧ - ٨٢٨ . وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٨ .

ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها فشبَّهها ببيت العنكبوت[١]. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ «لَوْ» متعلقةٌ ببيت العنكبوت. أي: لو علموا أنَّ عبادة الأوثان كاتِّخاذِ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً، وأنَّ هذا مثَلُهم لَمَا عبدوها، لا أنَّهم يعلمون أنَّ بيت العنكبوت ضعيف[٢]. وقال النُّحاة: إنَّ تاء العنكبوت في آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط في التصغير والجمع. وهي مؤنثة، وحكى الفرَّاءُ تذكيرها وأنشد:

على هَطَّالِهِمْ منهم بُيوتٌ كأنَّ العنكبوتَ قدِ ابتناها[٣]

ويُروى:

على أهطالهم منهم بيوتٌ

قال الجوهري: والهَطَّال: اسم جبل[٤]. والعنكبوت: الدُّوَيِّبةُ المعروفةُ التي تنسج نسجاً رقيقاً مُهلهلاً بين الهواء[٥]. ويُجمع عناكِيب وعَنَاكِب وعِكَاب وعُكُب وأعكُب. وقد حُكِيَ أنه يُقال: عَنكَب[٦] وعَكَنْبَاة[٧]؛ قال الشاعر:

كأنَّما يَسقطُ من لُغَامِها[٨] بيتُ عَكَنْبَاةٍ على زِمَامِها

وتُصغَّر فيقال: عُنَيكِب[٩]. وقد حُكي عن يزيد بن مَرْثد[١٠] أنَّ العنكبوت شيطانٌ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩ بنحوه.

(٣) من قوله: وهي مؤنثة.... إلى نهاية البيت من إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧ .

(٤) الصحاح (هطل)، وما قبله منه.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٧) وهي في لغة أهل اليمن فيما نقل الأزهري في تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ عن الليث.

(٨) أي: زبدها. الصحاح (لغم).

(٩) تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ .

(١٠) في النسخ: يزيد بن ميسرة، وهو تحريف.

مسخها الله تعالى[١]. وقال عطاء الخراساني: نسجَتِ العنكبوتُ مرتين مرةً على داود حين كان جالوت يطلبه، ومرةً على النبيِّ ﷺ؛ ولذلك نهى عن قتلها[٢]. ويُروى عن عليٍّ ﷺ أنه قال: طهِّروا بيوتكم من نَسْجِ العنكبوت، فإنَّ تركَه في البيوت يُورِثُ الفقر، ومنع الخمير يورث الفقر[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ «ما» بمعنى الذي[٤]، و«مِنْ» للتبعيض، ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى[٥]، والمعنى: إنَّ الله يعلم ضِعْفَ ما يعبدون من دونه.

وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب: «يَدْعُونَ» بالياء، وهو اختيار أبي عبيد؛ لذِكْرِ الأمم قبلها. الباقون بالتاء على الخطاب[٦].

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا﴾ أي: هذا المثل وغيره مما ذُكِرَ في «البقرة»[٧] و«الحج»[٨] وغيرِهما ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نُبيِّنُها ﴿لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ أي: يفهمها ﴿إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ أي: العالمون بالله، كما روى جابرٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «العالمُ مَنْ عقَلَ عن الله، فعمِلَ بطاعتِه، واجتنب سخطَه»[٩].

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٥٠٠) و(٥٠٤) من طريق بقية بن الوليد، عن الوضين بن عطاء، عن يزيد بن مرثد مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان فاقتلوه». إسناده منقطع، وبقية مدلس وقد عنعن فيه، والوضين سيئ الحفظ.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٧ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان مسخه الله فاقتلوه». وفي إسناده مسلمة بن علي الخشني، وهو متروك، قال ابن عدي: وعامة أحاديثه غير محفوظة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٢٣) دون قوله: ولذلك نهى عن قتلها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٨ دون قوله: ومنع الخمير يورث الفقر.

(٤) البيان ٢/ ٢٤٥.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧.

(٦) السبعة ص٥٠١، والتيسير ص١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٣.

(٧) ١/ ٣٦٥.

(٨) ١٤/ ٤٤٦-٤٤٧.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٨. والحديث أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل فيما ذكر الزيلعي في =

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي: بالعدل والقسط. وقيل: بكلامه وقدرته وذلك هو الحق. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: علامةً ودلالةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين.

قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ﴾ أمرٌ بالتلاوة[1] والدُّؤوب عليها. وقد مضى في «طه»[2] الوعيدُ فيمن أعرضَ عنها، وفي مقدِّمة الكتاب[3] الأمرُ بالحضِّ عليها. والكتاب يُراد به القرآن.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ وأمَّتِهِ، وإقامةُ الصلاة أداؤها في أوقاتها بقوامتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهُّدها وجميع شروطها. وقد تقدَّم بيانُ ذلك في «البقرة»[4] فلا معنى للإعادة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ يريدُ: إنَّ

= تخريج الأحاديث والآثار ٣/ ٤٣ ، وأخرجه من طريقه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٣٧)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٢٠ . وداود بن المحبر متروك فيما قاله الدارقطني في الضعفاء والمتروكين ١/ ٢٠٢ . ونقل ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢١٩ عن الدارقطني أنه قال: كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر، فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركبه بأسانيد أخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي فأتى بأسانيد أخر.

(١) في (د) و(م): من التلاوة، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٢) ١٤/ ١٥٧ .

(٣) ١/ ٦ فما بعد.

(٤) ١/ ٢٥٣ فما بعد.

الصلاة الخمس هي التي تكفِّر ما بينها من الذنوب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتُم لو أنَّ نهراً ببابِ أحدِكم يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ هل يبقى من دَرَنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من دَرَنه شيء. قال: «فذلِكَ مَثَلُ الصلواتِ الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا» خرَّجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[١]. وقال ابن عمر: الصلاة هنا القرآن[٢]. والمعنى: الذي يُتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصي.

قلت: ومنه الحديث الصحيح: «قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين»[٣] يريد قراءةَ الفاتحة. وقال حماد بن أبي سليمان وابن جُريج والكلبي: العبدُ مادامَ في صلاته لا يأتي فحشاءً ولا منكراً، أي: إنَّ الصلاةَ تنهى ما دمتَ فيها. قال ابن عطية[٤]: وهذه عُجمةٌ، وأينَ هذا ممَّا رواه أنس بن مالك قال: كان فتًى من الأنصار يُصلِّي مع النبيِّ ﷺ ولا يدَعُ شيئاً من الفواحش والسرقة إلَّا رَكِبَه، فذُكِرَ للنبيِّ ﷺ فقال: «إنَّ الصلاةَ ستنهاه» فلم يلبَثْ أن تابَ وصلحت حالُه، فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقُلْ لكم؟»[٥].

وفي الآية تأويلٌ ثالث، وهو الذي ارتضاه المحقِّقون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون، فقيل: المرادُ بـ«أقِمِ الصَّلاةَ» إدامتُها والقيامُ بحدودها، ثم أخبر حُكماً منه بأنَّ الصلاة تنهى صاحبَها وممتثِلَها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لِما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة، والصلاة تشغَلُ كلَّ بدن المصلِّي، فإذا دخل

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٦٨). وأخرجه أحمد (٨٩٢٤)، والبخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٩-٣٢٠.

(٣) وقد سلف ١/ ١٤٥-١٤٦.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠ وما قبله منه، وقول حماد بن أبي سليمان أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٤٦).

(٥) لم نقف على من أخرجه من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٩٧٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق! قال: «إنه سينهاه ما تقول».

المصلِّي في محرابه وخشعَ وأخبَتَ لربِّه وادَّكر أنه واقفٌ بين يديه، وأنه مُطَّلعٌ عليه ويراه، صلُحَتْ لذلك نفسُه وتذلَّلت، وخامَرها ارتقابُ الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتُها، ولم يكَدْ يفتر من ذلك حتى تُظِلَّه صلاةٌ أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة. فهذا معنى هذه الأخبار؛ لأنَّ صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون.

قلتُ: لاسيما وإن أشعر نفسَه أنَّ هذا ربما يكون آخرَ عمله، وهذا أبلَغُ في المقصود وأتَمُّ في المراد؛ فإنَّ الموت ليس له سِنٌّ محدود، ولا زمنٌ مخصوص، ولا مرضٌ معلوم، وهذا مما لا خلافَ فيه. ورُويَ عن بعض السلف أنه كان إذا قام على الصلاة ارتعد واصفَرَّ لونُه، فكُلِّم في ذلك فقال: إني واقفٌ بين يدي الله تعالى، وحُقَّ لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الموت؟! فهذه صلاةٌ تنهى ولابُدَّ عن الفحشاء والمنكر، ومَنْ كانت صلاتُه دائرةً حول الإجزاء، لا خشوعَ فيها ولا تذكُّرَ ولا فضائل، كصلاتنا ـ وليتَها تُجزئ ـ فتلك تترك صاحبَها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقةِ معاصٍ تُبعده من الله تعالى تركَتْه الصلاةُ يتمادى على بعده. وعلى هذا يُخرَّج الحديثُ المرويُّ عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم: مَنْ لم تنْهَه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم تَزِده من الله إلاَّ بُعداً[1]. وقد رُويَ أنَّ الحسنَ أرسله عن النبي ﷺ وذلكَ غيرُ صحيح السند[2]. قال ابن عطية[3]: سمعت أبي ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص١٩٩ ، والطبري ١٨/ ٤٠٩ ، والطبراني (٨٥٤٣)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٤) عن ابن مسعود ﷺ. وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٠٨ عن ابن عباس ﷺ. والطبري ١٨/ ٤١٠ عن الحسن.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨ ، والطبري ١٨/ ٤٠٩ ، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٢) عن الحسن مرفوعاً.

وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٣٩) من طريق عمر بن أبي عثمان، عن الحسن، عن عمران بن حصين مرفوعاً. عمر بن أبي عثمان مجهول، والحسن لم يسمع من عمران. المراسيل ص٤٠ .

وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٣٤٠)، والطبراني (١١٠٢٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٠٩) من طريق ليث ـ وهو ابن أبي سليم ـ عن طاوس، عن ابن عباس مرفوعاً. ليث ضعيف. ميزان الاعتدال ٣/ ٤٢٠ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٩ ، وما قبله وما بعده منه.

يقوله، فإذا قرَّرنا ونُظِرَ معناه فغيرُ جائزٍ أن يقول: إنَّ نفسَ صلاةِ العاصي تُبعِدُه من الله حتى كأنَّها معصية، وإنما يتخرَّج ذلك على أنها لا تؤثِّر في تقريبه من الله، بل تتركُه على حاله ومعاصيه، من الفحشاء والمنكر والبُعد، فلم تزِدْه الصلاةُ إلاَّ تقريرَ ذلك البُعدِ الذي كان بسبيله[١]؛ فكأنَّها بعَّدته حين لم تَكُفَّ بُعدَه عن الله. وقيل لابن مسعود: إنَّ فلاناً كثيرُ الصلاة. فقال: إنها لا تنفعُ إلاَّ مَنْ أطاعها[٢].

قلت: وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث: «لم تزِدْه من الله إلاَّ بُعداً، ولم يزدَدْ بها من الله إلاَّ مقتاً» إشارةٌ إلى أنَّ مرتكبَ الفحشاء والمنكر لا قَدرَ لصلاته؛ لغلبة المعاصي على صاحبها، وقيل: هو خبرٌ بمعنى الأمر. أي: لِينتَهِ المصلِّي عن الفحشاء والمنكر. والصلاةُ بنفسها لا تنهى، ولكنَّها سببُ الانتهاء، وهو كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] وقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ذِكْرُ الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبرُ من ذِكرِكم له في عبادتكم وصلواتكم. قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قُرَّة وسلما والحسن[٣]، وهو اختيار الطبري[٤]. ورُوِيَ مرفوعاً من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر، أنَّ النبيَّ ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: «ذِكْرُ الله إيَّاكم أكبرُ من ذكرِكم إيَّاه»[٥]. وقيل: ذِكْرُكم

---

(١) في (م): سبيله، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٨ ، والطبري ٨/ ٤٠٨-٤٠٩ ، وابن أبي حاتم (١٧٣٤٢)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٣).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠ ، وقول ابن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٨ ، وأحمد في الزهد ص٢٦٧، والطبري ١٨/ ٤١٤ . وقول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨ ، والطبري ١٨/ ٤١١-٤١٤، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥٠) و(١٧٣٥٢)، والحاكم ٢/ ٤٠٩ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٤١٣-٤١٤ عن أبي الدرداء، و١٨/ ٤١٤ عن أبي قرة، و١٨/ ٤١٣ عن سلمان والحسن.

(٤) في تفسيره ١٨/ ٤١٧ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠ . وأخرجه الديلمي في الفردوس ٤/ ٤٠٦ .

الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضلُ من كلِّ شيء[١]. وقيل: المعنى: إنَّ ذِكْرَ الله أكبرُ مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر[٢]. وقال الضحَّاك: ولَذِكرُ الله: عند ما يُحرِمُ فيتركُ أجَلَّ الذِّكر. وقيل: المعنى ولذِكرُ الله للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر، أي: كبير، وأكبر يكون بمعنى كبير[٣]. وقال ابن زيد وقتادة: ولَذِكرُ الله أكبرُ من كلِّ شيءٍ، أي: أفضل من العبادات كلِّها بغير ذكر[٤]. وقيل: ذِكرُ الله يمنع من المعصية، فإنَّ مَنْ كان ذاكراً له لا يُخالِفه[٥]. قال ابن عطية[٦]: وعندي أنَّ المعنى: ولَذِكرُ الله أكبرُ على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأنَّ الانتهاء لا يكون إلَّا من ذاكرٍ اللهَ مراقبٍ له. وثوابُ ذلك أنْ يذكره اللهُ تعالى، كما في الحديث: «مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومَنْ ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ خيرٍ منهم»[٧] والحركات التي في الصلاة لا تأثيرَ لها في نهي، والذِّكرُ النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرُّغِه إلاَّ من الله. وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبةٍ أخرى. وذِكرُ الله تعالى للعبد هو إفاضةُ الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرةٌ لذكر العبد ربَّه. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وباقي الآية ضَرْبٌ من الوعيد والحثِّ على المراقبة.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨٥ ، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧-٢٥٨ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠ .

(٥) الوسيط ٣/ ٤٢١ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٩ بمعناه.

(٦) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠ .

(٧) سلف ١٤/ ٢٩ .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾

فيه مسألتان:

الأولى: اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فقال مجاهد: هي مُحكمةٌ فيجوز مجادلةُ أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عزَّ وجلَّ، والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة. وقوله على هذا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ معناه: ظلموكم، وإلاَّ فكلُّهم ظَلَمةٌ على الإطلاق[1]. وقيل: المعنى: لا تجادلوا مَنْ آمن بمحمدٍ ﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سلاَم ومَنْ آمن معه[2]. ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: بالموافقة فيما حدَّثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك. وقوله على هذا التأويل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يريد به مَنْ بقي على كفره منهم، كمنْ كفرَ وغدرَ من قريظة والنَّضِير وغيرهم. والآية على هذا أيضاً محكمة. وقيل: هذه الآية منسوخةٌ بآية القتال؛ قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٨]. قاله قتادة[3].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: جعلوا لله ولداً، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [المائدة: ٦٤] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٨][4] فهؤلاء المشركون[5]. قال النحَّاس وغيره: من قال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠-٣٢١. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٤٢٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥٥)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٤٦).

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٤٢٣ عن مجاهد.

(٥) بعدها في النسخ عبارة: «في سقوط الجزية فانتصروا» ولم نتبيَّنها.

هي منسوخة، احتجَّ بأنَّ الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتالٌ مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك. وقولُ مجاهدٍ حسن؛ لأنَّ أحكام الله عزَّ وجلَّ لا يُقال فيها: إنها منسوخةٌ إلاَّ بخبرٍ يقطع العذر، أو حُجَّةٍ من معقول[١]. واختار هذا القول ابن العربي[٢]. قال مجاهد وسعيد بن جُبير: وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ معناه: إلاَّ الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يُعطوا الجزية[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ روى البخاري[٤] عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويُفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم وقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٦]». وروى عبد الله بن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيءٍ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا، إمَّا أن تُكذِّبوا بحقٍّ، وإمَّا أن تُصدِّقوا بباطل»[٥]. وفي البخاري[٦]: عن حُمَيد ابن عبد الرحمن سمع معاويةَ يُحدِّث رهطاً من قريشٍ بالمدينة، وذَكَر كعبَ الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدِّثين الذين يُحدِّثون عن أهل الكتاب، وإن كُنَّا مع ذلك لَنَبلُو عليه الكذب.

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٦ دون قوله: «ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض» فهو في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٥.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥ من غير نسبة.

(٤) في صحيحه (٤٤٨٥)، وقد سلف ٢/ ٤١٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠١٦٢) و(١٩٢١٢)، والطبري ١٨/ ٤٢٣ من طريق حريث بن ظهير، عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفاً. وحريث بن ظهير مجهول. قلنا: وقد رُوي مرفوعاً كما في مسند أحمد (١٤٦٣١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفي إسناده مجالد بن سعيد الهمداني، وهو ضعيف.

(٦) في صحيحه (٧٣٦١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الضمير في «قَبْلِهِ» عائدٌ إلى الكتاب، وهو القرآن المُنَزَّل على محمد ﷺ، أي: وما كنتَ يا محمد تقرأ قبله، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليكَ في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك، فلو كنتَ ممَّن يقرأُ كتاباً، ويَخطُّ حروفاً ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلَّق، وقالوا: الذي نجده في كتبنا أنه أميٌّ لا يكتبُ ولا يقرأُ وليس به. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أنَّ محمداً ﷺ لا يخُطُّ ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية[١]؛ قال النحَّاس[٢]: دليلاً على نبوَّتِه لقريش؛ لأنَّه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهلَ الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالتِ الرِّيبةُ والشَّكُ.

الثانية: ذكر النقَّاش في تفسير هذه الآية عن الشَّعبي أنه قال: ما ماتَ النبيُّ ﷺ حتى كتب[٣]. وأسندَ أيضاً حديثَ أبي كَبشة السَّلُولي؛ مضمنه: أنه ﷺ قرأ صحيفةً لعُيينَةَ[٤] بن حِصن، وأخبر بمعناها. قال ابن عطية[٥]: وهذا كلُّه ضعيف، وقول الباجي رحمه الله منه.

قلت: وقع في «صحيح مسلم» من حديث البراء في صلح الحديبية أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعلي: «اكتُبِ الشَّرطَ بيننا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ الله» فقال له المشركون: لو نعلم أنَّكَ رسولُ الله تابعناك ـ وفي رواية بايعناك ـ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١-٣٢٢.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢٥٨.

(٣) أخرجه البيهقي ٧/ ٤٢-٤٣ وقال: هذا حديث منقطع، وفي رواية جماعة من الضعفاء والمجهولين.

(٤) أخرجه أبو داود (١٦٢٩).

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢، والمسألة كلها منه.

ولكن اكتُبْ: محمدُ بن عبد الله. فأمرَ عليًّا أن يمحوَها، فقال عليٌّ: والله لا أمحاه. فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانَها» فأراه، فمحاها وكتب: ابن عبد الله[١]. قال علماؤنا ﷺ: وظاهر هذا أنه عليه الصلاة والسلام محا تلك الكلمة التي هي رسول الله ـ ﷺ ـ بيده، وكتب مكانها: ابن عبد الله. وقد رواه البخاري بأظهرَ من هذا، فقال: فأخذَ رسولُ الله ﷺ الكتابَ فكتب[٢]. وزاد في طريق أخرى: ولا يحسن أن يكتب[٣]. فقال جماعةٌ بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده، منهم السمناني وأبو ذرّ والباجي، ورأوا أنَّ ذلك غيرُ قادحٍ في كونه أُميًّا، ولا مُعارِضٌ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ ولا لقوله: «إنَّا أمةٌ أميَّةٌ لا نكتب ولا نحسب»[٤] بل رأوه زيادة في معجزاته، واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته، وذلكَ أنه كتب من غير تعلُّمٍ لكتابة، ولا تعاطٍ لأسبابها، وإنَّما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركاتٍ كانت عنها خطوطٌ مفهومُها ابنُ عبد الله لمن قرأها، فكان ذلك خارقاً للعادة، كما أنه عليه الصلاة والسلام عَلِمَ الأوَّلين والآخرين من غير تعلُّمٍ ولا اكتساب، فكان ذلك أبلغَ في معجزاته، وأعظمَ في فضائله. ولا يزول عنه اسمُ الأميِّ بذلك؛ ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة: ولا يُحسنُ أن يكتب[٥]. فبقي عليه اسمُ الأميِّ مع كونه قال: كتب. قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وقد أنكر هذا كثيرٌ من متفقِّهة الأندلس وغيرهم، وشدَّدوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليلٌ على عدم العلوم النظرية، وعد التوقُّفِ في تكفير المسلمين، ولم يتفطَّنوا؛ لأنَّ تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في الصحيح[٦]، لاسيما

---

(١) صحيح مسلم (١٧٨٣). وهو في مسند أحمد (١٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٩٨).

(٢) صحيح البخاري (٢٦٩٩).

(٣) صحيح البخاري (٤٢٥١).

(٤) سلف ٢/٢١٦.

(٥) في المفهم ٣/٦٣٧-٦٣٨، وما قبله منه، يعني من قوله: وظاهر هذا أنه....

(٦) أخرجه أحمد (١٦٣٨٥)، والبخاري (٦١٠٥) من حديث ثابت بن الضحاك ﷺ مرفوعاً بلفظ: «من رمى مؤمناً بكفرٍ فهو كقتله».

رميُ مَنْ شهِدَ له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة، على أنَّ المسألة ليست قطعية، بل مستندُها ظواهِرُ أخبار أحادٍ صحيحة، غير أن العقل لا يُحيلها، وليس في الشريعة قاطعٌ يُحيلُ وقوعَها.

قلتُ: وقال بعض المتأخِّرين: مَنْ قال: هي آيةٌ خارقة، فيقال له: كانت تكون آيةً لا تُنكرُ لولا أنَّها مناقضَةٌ لآيةٍ أخرى وهي كونه أمياً لا يكتب، وبكونه أميًّا في أمَّةٍ أميَّةٍ قامت الحج، وأُفحِمَ الجاحدون، وانحسمتِ الشُّبهة، فكيف يُطلِقُ الله تعالى يده فيكتب وتكون آية. وإنَّما الآيةُ ألاَّ يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفَعُ بعضُها بعضاً. وإنما معنى كتب وأخذ القلم، أي: أمرَ مَنْ يكتبُ به من كُتَّابه، وكان من كَتبةِ الوحي بين يديه ﷺ ستةٌ وعشرون كاتباً[1].

الثالثة: ذكر القاضي عياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي ﷺ فقال له: «ألقِ الدَّواةَ، وحرِّفِ القلَمَ، وأقِم الباءَ، وفَرِّقِ السينَ، ولا تُعوِّرِ الميمَ، وحَسِّنِ الله، ومُدَّ الرحمنَ، وجَوِّدِ الرحيم»[2] قال القاضي: وهذا وإن لم تصحَّ الروايةُ أنه ﷺ كتبَ فلا يَبعُدُ أن يُرزَقَ عِلمُ هذا، ويُمنعَ القراءةَ والكتابة[3].

قلت: هذا هو الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً، وإنما أمر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجَّى. فإن قيل: فقد تهجَّى النبيُّ ﷺ حين ذكر الدجَّال فقال: «مكتوبٌ بين عينيه: ك ا ف ر»[4] وقلتُم: إنَّ المعجزة قائمةٌ في كونه أميًّا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الآية، وقال: «إنَّا أمةٌ أميَّةٌ لا نكتب

---

(١) الروض الأنف ٤/ ٣٦.

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس ٥/ ٣٩٤. وأخرجه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص١٧٠ من طريق الوليد بن مسلم، عن يزيد بن يزيد بن جابر، عن مكحول، عن معاوية ﷺ. الوليد بن مسلم يدلس التسوية ولم يصرح بالتحديث في كل طبقات الإسناد. ومكحول لم يسمع من معاوية فيما ذكر ابن أبي حاتم في المراسيل ص١٦٦.

(٣) المسألة في الشفا ١/ ٧٠٢-٧٠٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٠٠٤)، والبخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس ﷺ.

ولا نحسب» فكيف هذا؟ فالجواب ما نصَّ عليه رسول الله ﷺ في حديث حذيفة، والحديث كالقرآن يفسِّرُ بعضُه بعضاً، ففي حديث حذيفة: «يقرؤه كلُّ مؤمن كاتبٍ وغيرِ كاتب»[١] فقد نصَّ في ذلك على غير الكتاب ممن يكون أميًّا. وهذا من أوضح ما يكون جليًّا.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ يعني القرآن. قال الحسن: وزعمَ الفرَّاء في قراءة عبد الله: «بَلْ هيَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» المعنى: بل آياتُ القرآن آياتٌ بيِّنات. قال الحسن: ومثله ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] ولو كانت هذه لجاز، نظيره: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف: ٩٨][٢] قال الحسن: أُعطيتْ هذه الأمة الحِفظ، وكان مَنْ قبلها لا يقرؤون كتابَهم إلاَّ نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلاَّ النبيُّون، فقال كعب في صفة هذه الأمة: إنهم حكماءُ علماءُ، وهم في الفقه أنبياء[٣]. ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحرٌ أو شعر، ولكنه علاماتٌ ودلائلُ يُعرَفُ بها دينُ اللهِ وأحكامُه. وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمدٍ ﷺ والمؤمنون به، يحفظونه ويقرؤونه. ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميَّزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين. وقال قتادة وابن عباس: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الكتاب يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم بهذه الصفة أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا[٤]. وهذا اختيار الطبري[٥]. ودليلُ هذا القول قراءةُ ابن مسعود

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٧٩)، ومسلم (٢٩٣٤): (١٠٥).

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٨ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧ ، وقراءة عبد الله هذه شاذة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٧ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١ بنحوه.

(٥) في تفسيره ١٨/ ٤٢٧ .

وابن السَّمَيفَع: «بَلْ هَذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتَ»[١] وكان عليه الصلاة والسلام آياتٍ لا آيةً واحدة؛ لأنه دلَّ على أشياءَ كثيرةٍ من أمر الدين؛ فلهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾. وقيل: بل هو ذو آيات بيِّنات، فحذف المضاف. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: الكفار؛ لأنهم جحدوا نبوَّتَه وما جاء به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله ﷺ، ومعناه: هلاَّ أُنزِلَ عليه آيةٌ كآيات الأنبياء[٢]. قيل: كما جاء صالحٌ بالناقة، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى[٣]، أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ فهو يأتي بها كما يريد، إذا شاء أرسلها وليست عندي ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٤].

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: «آيةٌ» بالتوحيد. وجمع الباقون[٥]. وهو اختيار أبي عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾[٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ هذا جوابُ

---

(١) وهي قراءة شاذة.

(٢) الوسيط ٣/ ٤٢٣ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٨ .

(٤) الوسيط ٣/ ٤٢٣ ، وزاد المسير ٦/ ٢٧٩ .

(٥) السبعة ص٥٠١ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٦) وردَّ هذا الاختيار أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣٥ .

لقولهم: «لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ»[١]. أي: أوَ لم يكفِ المشركين من الآيات هذا الكتابُ المعجزُ الذي قد تحدَّيتَهُم بأن يأتوا بمثله و بسورةٍ منه، فعجزوا، ولو أتيتَهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحرٌ ونحن لا نعرف السحر، والكلام مقدورٌ لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة.

وقيل: إنَّ سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عُيَينة عن عَمرو بن دينار عن يحيى ابن جَعدة قال: أُتيَ النبيُّ ﷺ بكتفٍ فيه كتاب، فقال: «كفى بقومٍ ضلالةً أن يرغبوا عمَّا جاء به نبيُّهم إلى ما جاء به نبيٌّ غيرُ نبيِّهم أو كتابٌ غيرُ كتابهم» فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أخرجه أبو محمد الدارميُّ في «مسنده»[٢]. وذكره أهل التفسير في كتبهم[٣]. وفي مثل هذا قال ﷺ لعمر ﷺ: «لو كان موسى بن عمران حيًّا لَما وسِعَه إلاَّ اتِّباعي»[٤] وفي مثله قال ﷺ: «ليس مِنَّا منْ لم يَتغَنَّ بالقرآن»[٥] أي: يستغني به عن غيره. وهذا تأويل البخاري رحمه الله في الآية[٦]. وإذا كان لقارِئهِ بكلِّ حرفٍ عشرُ حسناتٍ فأكثر على ما ذكرناه في مقدمة الكتاب، فالرغبة عنه إلى غيره ضلالٌ وخُسرانٌ وغُبنٌ ونقصان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ في الدنيا والآخرة. وقيل: رحمةٌ في

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢ .

(٢) (٤٧٨)، وأخرجه أبو داود في المراسيل (٤٥٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٨٠). وإسناده مرسل.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٢٣٣ ، وأبو الليث في تفسيره ٢/ ٥٤١ ، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٧٩ .

(٤) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفي إسناده مجالد بن سعيد الهمداني، وهو ضعيف.

وأخرجه أيضاً بنحوه (١٥٨٦٤) من حديث عبد الله بن ثابت ﷺ، وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف أيضاً.

(٥) سلف ١/ ٢١ .

(٦) إنما هو تأويل سفيان بن عيينة فيما نقل عنه البخاري في صحيحه عقب الحديث (٥٠٢٤).

الدنيا باستنقاذهم من الضلالة. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: قُلْ للمكذِّبين لكَ: كفى بالله شهيداً يشهدُ لي بالصدق فيما أدَّعِيه من أني رسولُه، وأنَّ هذا القرآنَ كتابُه[٢].

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء. وهذا احتجاجٌ عليهم في صحة شهادته عليهم؛ لأنهم قد أقرُّوا بعلمه فلزمهم أن يُقِرُّوا بشهادته. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال يحيى بن سلاَّم: بإبليس. وقيل: بعبادة الأوثان والأصنام. قاله ابن شجرة. ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: لتكذيبهم برسله، وجَحْدِهم لكتابه. وقيل: بما أشركوا به من الأوثان، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنفسهم وأعمالهم في الآخرة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ لمَّا أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار: عَجِّلْ لنا هذا العذاب. وقيل: إنَّ قائل ذلك النَّضر بن الحارث وأبو جهل حين قالا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ في نزول العذاب. قال ابن عباس: يعني: هو ما وعدتُكَ ألاَّ أُعذِّبَ قومك وأُؤخّرهم إلى يوم القيامة. بيانه: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨٩.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٩.

[القمر: ٤٦]. وقال الضحَّاك: هو مدَّة أعمارهم في الدنيا[١]. وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى. قاله يحيى بن سلاّم[٢]. وقيل: الوقت الذي قدَّره الله لهلاكهم وعذابهم. قاله ابن شجرة. وقيل: هو القتل يوم بدر[٣]. وعلى الجملة فلكلٍّ عذابٍ أجلٌ لا يتقدَّم ولا يتأخَّر. دليله قوله: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]. ﴿جَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: الذي استعجلوه. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون بنزوله عليهم[٤]. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: يستعجلونك وقد أعدَّ لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنى الاستعجال. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ قيل: هو متَّصلٌ بما هو قبله، أي: يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم[٥]. وإنما قال: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ للمقاربة، وإلَّا فالغشيان من فوق أعَمُّ، كما قال الشاعر:

عَلَفْتُها تِبْنًا وماءً بارِدا[٦]

وقال آخر:

لقد كان قَوَّادَ الجيادِ إلى العِدا عليهنَّ غابٌ من قَنًى ودروعِ[٧]

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١، وقول الضحاك في الوسيط ٣/ ٤٢٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٨٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٠ .

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٨٠ عن الثعلبي.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٩٠ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ .

(٦) هذا صدر بيت عجزه: حتى شتت همَّالةً عيناها. وقد سلف ١/ ٢٩١ .

(٧) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ص٤١٠ ، وفيه: الوغى بدل العدا.

﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة: «نَقُولُ» بالنون. الباقون بالياء. واختاره أبو عبيد؛ لقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ ويحتمل أن يكون الملَك الموكَّل بهم يقول: «ذُوقُوا» والقراءتان ترجع إلى معنى. أي: يقول الملَكُ بأمرنا: ذوقوا[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ـ في قول مقاتل والكلبي ـ فأخبرهم الله تعالى بِسَعة أرضه، وأنَّ البقاء في بقعةٍ على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن تُتَلمَّسَ عبادةُ الله في أرضه مع صالحي عباده[٢]، أي: إن كنتم في ضيقٍ من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها[٣]. وقال ابن جُبير وعطاء: إنَّ الأرض التي فيها الظلمُ والمنكرُ تترتَّبُ فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق. وقاله مالك[٤]. وقال مجاهد: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجروا وجاهدوا[٥]. وقال مُطرِّف[بن عبد الله] بن الشِّخِّير: المعنى: إنَّ رحمتي واسعة. وعنه أيضاً: إنَّ رزقي لكم واسعٌ فابتغوه في الأرض[٦]. قال سفيان الثوري: إذا كنتَ بأرضٍ غاليةٍ

(١) السبعة ص٥٠١ ، والتيسير ص١٧٤ . وينظر الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ . وذكر مقاتل والكلبي من تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ ، وزاد المسير ٦/ ٢٨١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٩١ . والقول الثاني في تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ ، وزاد المسير ٦/ ٢٨١ . وما بين حاصرتين من تلك المصادر.

فانتقِلْ إلى غيرها تملأُ فيها جِرابَكَ خبزاً بدرهم. وقيل: المعنى: إنَّ أرضي التي هي أرض الجنة واسعة. ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ حتى أورثكموها[١]. ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ «إيَّايَ» منصوبٌ بفعلٍ مضمر، أي: فاعبدوا إيَّايَ فاعبدون، فاستغنى بأحد الفعلين عن الثاني، والفاء في قوله: «فَإيَّايَ» بمعنى الشرط[٢]، أي: إنْ ضاقَ بكم موضعٌ فإيَّايَ فاعبدوني [في غيره][٣]؛ لأن أرضي واسعة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[٤]. وإنما ذكره هاهنا تحقيراً لأمر الدنيا ومخاوفها. كأنَّ بعض المؤمنين نظر في عاقبةٍ تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أن يموت أو يجوع أو نحو هذا، فحقَّرَ اللهُ شأن الدنيا. أي: أنتم لا مَحالةَ ميِّتون ومحشورون إلينا، فالبِدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل. ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى، وذكر الجزاء الذي ينالونه، ثم نعتهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٥]. وقرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدري وابن أبي إسحاق وابن مُحيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف: «يا عِبادِي» بإسكان الياء. وفتحها الباقون[٦]. «إنَّ أرْضِي» فتحَها ابن عامر، وسكَّنها الباقون[٧].

وروِيَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ فَرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ ولو قيدَ شبرٍ استوجبَ الجنة، وكان رفيقَ محمد وإبراهيم» عليهما السلام[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٢-١٧٣ .

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) ٥/ ٤٤٧ فما بعده.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ .

(٦) قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي في السبعة ص٥٠١-٥٠٢ ، وقراءتهم وقراءة يعقوب وخلف وهما من العشرة في النشر ٢/ ١٧٠ .

(٧) السبعة ص٥٠٢ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٢ ، والكشاف ٣/ ٢١٠ ، وقد سلف ٧/ ٦٤ .

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وقرأ السُّلميُّ وأبو بكر عن عاصم: «يُرْجَعُونَ» بالياء؛ لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وقرأ الباقون بالتاء؛ لقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[1] وأنشد بعضهم:

الموتُ في كلِّ حينٍ يَنشدُ الكَفنَا ... ونحنُ في غفلةٍ عَمَّا يُرادُ بِنا

لا تَركننَّ إلى الدُّنيا وزَهرتِها ... وإنْ توشَّحْتَ من أثوابِها الحَسنا

أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فَعَلُوا ... أينَ الذين هُمُو كانوا لها سَكَنا

سقَاهُمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ ... صيَّرهم تحتَ أطباقِ الثَّرَى رُهُنا

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة والكسائي: ﴿لَنُثْوِينَّهم﴾ بالثاء مكان الباء من الثُّويِّ: وهو الإقامة[2]، أي: لَنُعطينَّهم غُرفاً يثوون فيها[3]. وقرأ رويس عن يعقوب والجحدري والسُّلمي: «لَيُبَوئَنَّهُمْ» بالياء مكان النون[4]. الباقون ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ أي: لنُنزِلَنَّهم ﴿غُرَفًا﴾[5] جمع غرفة وهي العُلِّيَّة المُشرِفة[6]. وفي «صحيح مسلم»[7] عن سعيد الخدري[8] أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة لَيتراءَون أهلَ الغُرَفِ من فوقهم كما تتراءونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ من الأفق من المشرق أو المغرب لِتفاضُلِ ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازلُ الأنبياء لا يبلُغُها غيرُهم. قال: «بلى،

(١) قراءة أبي بكر عن عاصم في السبعة ص٥٠٢ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ دون ذكر الأعمش. وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٥٠٢، والتيسير ص١٧٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤ .

(٤) المشهور عن يعقوب: لنبوِّئنهم. النشر ٢/ ٣٤٤ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤ .

(٦) الصحاح (غرف).

(٧) (٢٨٣١). وأخرجه البخاري (٣٢٥٦).

(٨) في النسخ: سهل بن سعد، والتصويب من الصحيحين.

والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين». وخرَّج التِّرمذي[١] عن عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنة لَغُرفاً يُرى ظهورُها من بطونِها وبطونُها من ظهورِها» فقام إليه أعرابيٌّ فقال: لِمن هي يا رسولَ الله؟ قال: «هي لمن أطابَ الكلام، وأطعمَ الطعام، وأدام الصيام، وصلَّى للهِ بالليلِ والناسُ نِيام» وقد زِدْنا هذا المعنى بياناً في كتاب «التذكرة»[٢] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أسند الواحديُّ عن يزيد بن هارون قال: حدَّثنا الجرَّاح[٣] بن المِنهال، عن الزُّهري ـ وهو عبد الرحمن بن عطَّاف[٤] ـ عن عطاء، عن ابن عمر قال: خرَجْنا مع رسول الله ﷺ حتى دخلَ بعضَ حيطان الأنصار، فجعلَ يلتقط من الثمر [ويأكل] فقال: «يا ابن عمر، مالَكَ لا تأكل؟» فقلتُ: لا أشتهيه يا رسول الله. فقال: «لكنِّي أشتهيه، وهذه صبيحةُ رابعةٍ لم أذُقْ طعاماً، ولو شئتُ لَدَعوتُ ربي فأعطاني مثلَ ملك كسرى وقيصر، فكيف بِكَ يا ابن عمر إذا بقيتَ في قوم يُخبِئون رزقَ سَنَتهم ويَضْعُفُ اليقين» قال: واللهِ ما بَرِحْنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٥].

قلت: وهذا ضعيفٌ يُضعِفه أنه عليه الصلاة والسلام كان يدَّخِرُ لأهله قوتَ

---

(١) في سننه (١٩٨٤) و(٢٥٢٧)، وهو في مسند أحمد من زوائد ابنه عبد الله (١٣٣٨).

(٢) ص٤٦١-٤٦٤.

(٣) في النسخ: حجاج، والتصويب من المصادر.

(٤) في النسخ: عبد الرحيم بن عطاء، وفي أسباب النزول: عبد الرحمن بن عطاء، وفي الوسيط: عبد الرحيم بن عطاف، والتصويب من تهذيب التهذيب ٢/ ٥٣٤، وثقات ابن حبان ٧/ ٧٠.

(٥) أسباب النزول ص٣٥٨-٣٥٩، والوسيط ٣/ ٤٢٥، وما بين حاصرتين منهما. وأخرجه ـ أيضاً ـ عبد بن حميد (٨١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٧١٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ ١٢٧ من طريق يزيد بن هارون، به. إلا أنهم قالوا: عن رجل، بدل: عطاء. والجراح بن منهال متروك. ميزان الاعتدال ١/ ٣٩٠. وعبد الرحمن بن عطاف مجهول الحال، تفرد بالرواية عنه اثنان، ولم يوثقه غير ابن حبان على عادته في توثيق المجاهيل.

سَنَتِهم. اتَّفق عليه البخاري ومسلم[١]. وكانت الصحابةُ يفعلون ذلك وهم القدوة، وأهلُ اليقين والأئمةُ لمن بعدهم من المتقين المتوكلين. وقد روى ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون: «اخرجوا إلى المدينة وهاجِروا ولا تجاوروا الظَّلَمة» قالوا: ليس لنا بها دارٌ ولا عقارٌ ولا مَنْ يُطعِمُنا ولا مَنْ يسقينا. فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[٢] أي: ليسَ معها رزقُها مُدَّخراً، وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجرة[٣]. وهذا أشبهُ من القول الأوَّل. وتقدَّم الكلامُ في «كَأَيِّنْ» وأنَّ هذه «أيّ» دخلت عليه كاف التشبيه وصارَ فيها معنى كم. والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد. أي: كشيءٍ كثيرٍ من العدد من دابة[٤]. قال مجاهد: يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئاً. الحسن: تأكل لوقتها ولا تدَّخِرُ لغد[٥]. وقيل: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تقدِرُ على رزقها[٦] ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أينما توجَّهت ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾[٧]. وقيل: الحملُ بمعنى الحَمالة[٨]. وحكى النقَّاش: أنَّ المُرادَ النبيُّ ﷺ يأكلُ ولا يدَّخر[٩].

قلت: وليس بشيء؛ لإطلاق لفظ الدابة، وليس مستعملاً في العُرفِ إطلاقُها على الآدميِّ فكيف على النبيِّ ﷺ. وقد مضى هذا في «النمل» عند قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [الآية: ٨٢]. قال ابن عباس: الدوابُّ: هو كلُّ

---

(١) صحيح البخاري (٥٣٥٧)، وصحيح مسلم (١٧٥٧) (٥٠) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٤ بنحوه.

(٤) سلف ٥/ ٣٤٩ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ .

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٣٧٧ .

(٧) زاد المسير ٦/ ٢٨٣ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٥ .

(٩) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ .

ما دبَّ من الحيوان، فكلُّه لا يَحمِلُ رِزقَه ولا يَدَّخِرُ إلاَّ ابنُ آدم والنملُ والفأر[١]. وعن بعضهم: رأيتُ البلبل يحتكر في مِحضَنِه. ويُقال: للْعَقْعَقِ مَخابئ إلاَّ أنه ينساها[٢]. ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۖ﴾ يسوِّي بين الحريص والمتوكل في رزقه، وبين الراغب والقانع، وبين الحَيُول والعاجز حتى لا يغترَّ الجَلِدُ أنه مرزوقٌ بجَلَده، ولا يتصوَّرَ العاجزُ أنه ممنوعٌ بَعجزِه[٣]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «لو أنَّكم تَوَكَّلون على الله حقَّ تَوكُّلِه لَرزقَكم كما يرزقُ الطيرَ تغدو خِماصاً وتروحُ بِطاناً»[٤]. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائِكم وقولِكم: لا نجِدُ ما نُنفِقُ بالمدينة ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الآية. لما عيَّر المشركون المسلمين بالفقر وقالوا: لو كنتم على حقٍّ لم تكونوا فقراء. وكان هذا تمويهاً، وكان في الكفار فقراء أيضاً أزال الله هذه الشبهة. وكذا قول من قال: إنْ هاجرنا لم نجِدْ ما نُنفِقُ. أي: فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء، فكيفَ تشكُّون في الرزق، فمَنْ بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد؛ ولهذا وصلَه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي. ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لا يختلف أمرُ الرزق بالإيمان والكفر، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر، فكلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١١.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣.

(٤) سلف ٧/ ٢٩٧ و١٠/ ١٥٩.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٣، وزاد المسير ٦/ ٢٨٣.

﴿شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أحوالكم وأموركم. وقيل: عليمٌ بما يُصلحكم من إقتارٍ أو توسيع.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: من السحاب مطراً. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أي: جَدْبِها وقَحْطِ أهلها. ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: فإذا أقررتُم بذلك فلِمَ تشركون به وتنكرون الإعادة. وإذا قَدَر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين، فكرَّرَ تأكيداً. ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما أوضح من الحُججِ والبراهين على قدرته. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يتدبَّرون هذه الحجج. وقيل: «الحَمْدُ للهِ» على إقرارهم بذلك[1]. وقيل: على إنزال الماء وإحياء الأرض.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: شيءٌ يلْهَى به ويُلعَب. أي: ليس ما أعطاه اللهُ الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحِلُّ ويزول، كاللعب الذي لا حقيقةَ له ولا ثبات، قال بعضهم: الدنيا إن بقيت لكَ لم تبْقَ لها. وأنشد:

تروحُ لنا الدنيا بغيرِ الذي غَدَتْ ... وتَحدُثُ من بعدِ الأمورِ أمورُ
وتجري الليالي باجتماعٍ وفُرقَةٍ ... وتطلُعُ فيها أنجمٌ وتَغُورُ
فمن ظنَّ أنَّ الدهرَ باقٍ سرورُهُ ... فذاكَ مُحالٌ لا يَدُومُ سرورُ
عَفَا اللهُ عَمَّن صَيَّرَ الهمَّ واحداً ... وأيقَنَ أنَّ الدائراتِ تَدُورُ

قلت: وهذا كلُّه في أمور الدنيا والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش، والقوَّةُ على الطاعات. وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذي يبقى كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: ما ابتُغِيَ به ثوابُه ورضاه. ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

موتَ فيها[١]. وزعم أبو عبيدة: أنَّ الحيوانَ والحياةَ والحيَّ ـ بكسر الحاءِ ـ واحدٌ، كما قال:

وقد ترى إذِ الحياةُ حِيُّ

وغيره يقول: إنَّ الحِيَّ جمعٌ على فِعول مثل عِصي[٢]. والحيوان يقع على كلِّ شيءٍ حيٍّ. وحيوان عينٌ في الجنة. وقيل: أصلُ حَيَوان حَبيان، فأُبدِلَتْ إحداهُما واواً؛ لاجتماع المثلين[٣]. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنها كذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: صادقين في نيَّاتهم، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها[٤]. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يدعون معه غيره، وما لم يُنزِّل به سلطاناً. وقيل: إشراكهم أن يقولَ قائلُهم: لولا اللهُ والرئيسُ أو الملاَّحُ لَغَرقنا، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمةً بين الله وبين خلقه.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قيل: هما لام كي، أي: لكي يكفروا ولكي يتمتعوا. وقيل: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ليكون ثمرة شِركهم أن يجحدوا نِعَمَ الله ويتمتعوا بالدنيا. وقيل: هما لام أمرٍ معناه التهديد والوعيد[٥]. أي اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتَّعوا. ودليل هذا قراءة أُبيٍّ: «وتَمَتَّعُوا»[٦].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٩-٢٦٠، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١١٧، والرجز للعجاج كما في اللسان (حيا) وتتمته: وإذ زمان الناس دغفليُّ.

(٣) المحكم لابن سيده (حي).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٢٦، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤، وزاد المسير ٦/ ٢٨٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٤، وهي قراءة شاذة.

ابن الأنباري: ويقوّي هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة: ﴿ولْيَتمتَّعوا﴾ بجزم اللام. النحاس: «وَلِيتَمَتَّعُوا» لام كي، ويجوز أن تكون لام أمر؛ لأنَّ أصل لام الأمر الكسر، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد. ومن قرأ: ﴿ولْيَتمتَّعوا﴾ بإسكان اللام لم يجعلها لام كي؛ لأن لام كي لا يجوز إسكانها[١]. وهي قراءة ابن كثير والمسيّبي وقالون عن نافع، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم. الباقون بكسر اللام[٢]. وقرأ أبو العالية: «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»[٣] تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هي مكة وهم قريش أمَّنهم الله تعالى فيها. ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قال الضحاك: يقتل بعضهم بعضاً ويَسبي بعضهم بعضاً[٤]. والخطف: الأخذ بسرعة. وقد مضى في «القصص»[٥] وغيرها. فأذكرهم الله عزَّ وجلَّ هذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة. أي: جعلتُ لهم حرماً آمناً أمِنوا فيه من السَّبي والغارة والقتل، وخلَّصتُهم في البر كما خلصتُهم في البحر، فصاروا يُشركون في البرِّ ولا يُشركون في البحر. فهذا تعجُّبٌ من تناقض أحوالهم.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال قتادة: أفبالشرك. وقال يحيى بن سلاَّم: أفبإبليس. ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ قال ابن عباس: أفبعافية الله. وقال ابن شجرة: أفبعطاءِ الله وإحسانه.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٠.

(٢) السبعة ص٥٠٢، والتيسير ص١٧٤.

(٣) الشاذة ص١١٥.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٩٤.

(٥) ١٦/ ٢٩٩.

وقال ابن سلاّم: أفبما جاء به النبيُّ ﷺ من الهدى. وحكى النقّاش: أفبإطعامهم من جوعٍ، وأمنهم من خوفٍ يكفرون. وهذا تعجُّبٌ وإنكارٌ خرج مخرج الاستفهام[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ ممَّنْ جعلَ مع الله شريكاً وولداً، وإذا فعل فاحشة قال: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ قال يحيى بن سلاّم: بالقرآن. وقال السُّدِّي: بالتوحيد. وقال ابن شجرة: بمحمدٍ ﷺ[٢]. وكلُّ قول يتناول القولين. ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مستقر. وهو استفهام تقرير[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ أي: جاهدوا الكفار فينا. أي: في طلب مرضاتنا. وقال السُّدِّيُّ وغيره: إنَّ هذه الآية نزلت قبل فرض القتال. قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العُرفي، وإنما هو جهادٌ عامٌّ في دين الله وطلب مرضاته. قال الحسن ابن أبي الحسن: الآية في العُبَّاد. وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون. وقد قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ علَّمه اللهُ ما لم يعلم»[٤] ونزع بعضُ العلماء إلى قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصَّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرُنا في العلم بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾. وقال أبو سليمان الدارانيُّ: ليس الجهادُ في الآية قتالَ الكفار فقط، بل هو نصرُ الدين، والردُّ على المبطلين، وقمعُ الظالمين، وعُظْمُه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر. وقال

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٩٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٤، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٨٢.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٥ من حديث أنس بن مالك ﷺ.

سفيان بن عُيَينة لابن المبارك: إذ رأيتَ الناسَ قدِ اختلفوا فعليكَ بالمجاهدين وأهل الثغور، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾. وقال الضحَّاك: معنى الآية: والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينَّهم سُبُلَ الثبات على الإيمان[١]. ثم قال: مثَلُ السُّنَّة في الدنيا كمثل الجنة في العُقبى، مَنْ دخل الجنة في العُقبى سَلِمَ، كذلك مَنْ لَزِمَ السُّنةَ في الدنيا سَلِمَ. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينَّهم سُبُلَ ثوابنا[٢]. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميعَ الأقوال، ونحوُه قولُ عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة: مَنْ طلبني فلم يجدْني فليطلُبْني في موضعين: أن يعمل بأحسنَ ما يعلَمُه، ويجتنبَ أسوأ ما يعلَمُه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: طريق الجنة. قاله السُّدِّيُّ. النقَّاش: يوفِّقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى: لنُخْلِصنَّ نيَّاتِهم وصدقاتِهم وصلَواتِهم وصيامَهم[٣]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لامُ تأكيدٍ، ودخلت في «مَعَ» على أحد وجهين: أن يكون اسماً، ولامُ التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفاً فتدخل عليها؛ لأنَّ فيها معنى الاستقرار، كما تقول: إنَّ زيداً لفي الدار. و«مَعَ» إذا سُكِّنتْ فهي حرفٌ لا غير. وإذا فُتِحتْ جاز أن تكون اسماً، وأن تكون حرفاً، والأكثرُ أن تكون حرفاً جاء لمعنى[٤]. وتقدَّم معنى الإحسان والمحسنين في «البقرة»[٥] وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنُّصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيَّتين بَونٌ.

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده

---

(١) من بداية الآية إلى هنا من المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٦.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٥.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٥.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٠.

(٥) ٣/ ٢٦٣.